أحمد السيد أبو مكي

كانوبوس

الصندوق المقدس

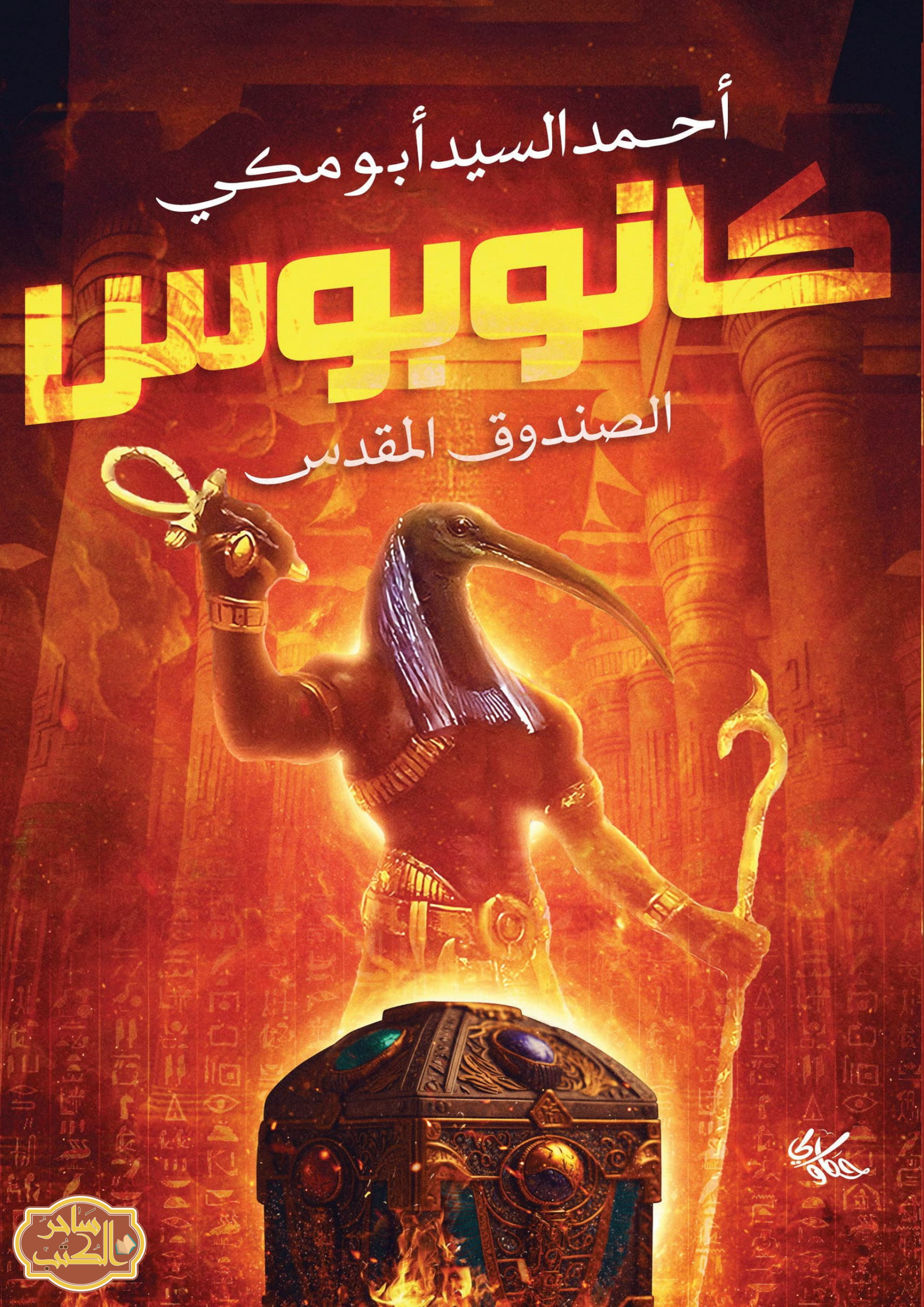

كانوبوس

Canopus

رواية

كانوبوس

Canopus

أحمد السيد أبو مكي

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إليكما ساكني الروح، نبض القلب، جريان الدماء في الشرايين، إليكما يا من آثرتما الرحيل ليظل قلبي غريبًا في عالم موحش، وحيدًا لا يستأنس إلا بطيفكما، إليكما أبي وأمي سلامًا حتى اللقاء...

«إن العدالة خالدة الذكرى، فهي تنزل مع من يقيمها إلى القبر...

ولكن اسمه لا يمحى من الأرض

بل يذكر على مر السنين بسبب العدل[١]»

(١) من قصة الفلاح الفصيح الأهناسي عاش في القرن الثالث والعشرين ق.م

-١-

العاصفة

«الأقصر» شتاء العام ٢٠٢٥م، اليوم عاصف للغاية على غير المعتاد، الرياح تقتلع الأشجار وتدمر البيوت الخوص التي تحمي حيوانات الفلاحين من الأمطار والبرد، السماء ملبدة بالغيوم، صوت الرعد يصم الآذان، ألسنة البرق تضرب الأشجار وأبراج التيار الكهربائي، انقطعت الكهرباء وشبكات الاتصال، عمّ غضب الطبيعة على الأرض، طقس ايقظ أهل البلدة قلقين، تهامس البعض أنها نهاية العالم، قال الآخر الشمس لن تخرج اليوم إلا من الغرب، وغيرهم يسخر مما يحدث، هناك من يخرج التفسيرات العلمية لما يجري، وآخر ينادي في الناس أن يعودوا لربهم قبل فوات الأوان، كان كل عقل يفسر ما يحدث حسب قناعته الشخصية، ولا أحد يعلم بحقيقة ما يحدث، الجميع قلق على مصالحه.

في أحد المنازل يجلس «عصام»، شاب في السابعة والعشرين من عمره، حنطي البشرة مائلة للسمار من آثار شمس طيبة الحارقة، عيناه واسعة عسلية اللون تخفي شيئًا من الحزن خلف نظراتها المتشبثة بالأمل، شاربه الخفيف المشذب المتصل بلحيته الخفيفة يضفيان على وجهه القليل من الجمال، متوسط الطول نحيف الجسد، معروف بتلبية كل من يطلب مساعدته على الرغم من هروبه الدائم للوحدة، تناول وجبة إفطار أعدتها

له أمه من انتاج حظيرتهم الصغيرة من بيض وجبن وزبدة، أقلقه الطقس العاصف والرياح العاتية، صبت له والدته كوبًا من الشاي وهي تهمس بابتسامة أنارت وجهها القمحي المزين بخطوط العمر:

-كثيرًا ما أفكر متى سيأتي اليوم الذي أراك فيه عريسًا.

أجابها بابتسامة:

-يبدو أنني أرهقتك ولم تعودي تستطيعين تحملي، حتى تفكري في زواجي في طقس غاضب كهذا.

قاطعته بنبرة عتاب:

-كفاك مزاح أنا جادة في كلامي، أريد أن أرى عرسك، أن أحمل أبناءك، أن أفرح بك.

جاءها صوت ابنتها «هاجر» ذات التسعة عشر عامًا، كانت نحيفة مثل أخيها تخفي أنوثتها في ثيابها الواسعة، قصيرة القامة مما يجعلها عرضة لتنمر «عصام»، بصوتها المثقل ببقايا النوم:

-شجعيه يا أمي نريد أن نرى من يخرجه من قوقعة وحدته.

ردد عصام كلمتها الأخيرة في سخرية وأضاف:

-وهل من ستخرجني من قوقعتي ستكون مثلك تظل نائمة حتى العاشرة صباحًا أيتها القصيرة؟

أثار غضبها بكلمته الأخيرة فلكزته بيدها في كتفه:

-لم أنم إلا بعد الفجر وأسأل والدتي.

ابتسمت والدتهما وقالت:

-نعم لقد كانت تذاكر حتى الفجر.

نهض تجاه الباب وقال ضاحكًا:

-الآن ستتفقان ضدي ، الهرب أفضل شيء.

فتح باب الدار بصعوبة لتدفعه الرياح العاتية ليرتطم في الحائط، فتمالك نفسه مع بعض الألم، وأكمل طريقه خارجًا من الدار، أتاه صوت والدته تحذره:

-إلى أين تذهب الآن؟ الطقس سيئ يا بني.

نظر إليها بصعوبة، ويكاد يغمض عينيه من الهواء المحمل بالأتربة لا يعرف من أين تأتي، وبرك الوحل تغطي الأرض والأمطار متواصلة، صاح:

-لا تقلقي يا أمي، سأحضر البقرة وصغيرها للدار لأكون مطمئنًا عليهما.

أجابته بقلق:

-يا بني انتظر انتهاء العاصفة ثم أحضر ما تشاء.

استدار وهو يقول:

-أعتقد أن الخوص ضعيف لن يتحمل العاصفة، والأمطار شديدة ستقتلهم.

ذهب وصوت والدته خلفه تناديه:

-انتظر لا تذهب الآن يا بني.

أكمل طريقه، رفع جلبابه ولف شاله على فمه وأنفه وبدأ يتلمس الطرق الأقل وحلًا، كان خريجًا جامعيًّا كأغلب شباب الصعيد، درس ترميم الآثار، لم تقطعه الدراسة عن أصله المرتبط بالأرض والزراعة وتربية المواشي المتوارثة لدى أبناء النيل على مر الزمان، كان يشق الطريق بشعرٍ متجعدٍ يهتز مع الهواء، وصل الحقل وفك الحبال من مرابطها بصعوبة بسبب تراكم الوحل عليها، وأخذ البقرة وصغيرها وعاد تجاه الدار بمشقة من شدة الرياح، شوارع البلدة خاوية، صوت الرعد يُفزع البقرة وصغيرها، فيزيدان عليه صعوبة السير.

توقفت الرياح فجأة، هدأ البرق والرعد، فتبسم وأكمل طريقه للمنزل، لم يكن يعلم أنه هدوء ما قبل العاصفة، ولما ظهر المنزل على مرمى بصره، كانت أمه تنتظره بقلق على الباب، تحولت صفرة النهار المحمل بالأتربة ظلامًا دامسًا، وبدأت السماء تضرب الأرض بسياط البرق، صوت الرعد مفزعًا للغاية، هاج صغير البقرة وهرب من يده، فهرول خلفه والبقرة بيده الأخرى، ضوء البرق جعله يتوقف، مع صوت أمه صارخة:

-احترس يا «عصـــــام»

لسان البرق سبق كلمتها وأسقطه أرضًا، فخرجت تهرول تجاهه وتبعتها أخته «هاجر» تركت الطعام وخرجت تركض لما سمعت صراخ

أمها، خرج الجيران على إثر الصراخ، جثت أمه على ركبتيها واحتضنته، وهي تنتحب وتلومه باكية:

-لقد حذرتك يا ولدي.

حمله الجيران إلى الدار مع ازدياد ألسنة البرق، صُعِقت البقرة تركوها صريعة تحتضر وحيدة وهربوا بـ«عصام» للأمان.

تجمع الجيران في منزله، ومحاولات الاتصال بسيارات الإسعاف باءت بالفشل لانقطاع شبكات الاتصال، استخدم أحد الجيران الهاتف الأرضي ولا مجيب، دخل شاب في أوائل العقد الثالث من العمر طويل القامة نحيف البنية، أسمر البشرة مهندم الملابس يرتدي نظارة طبية، توحي طلته بأنه طالب كلية طب، كان يُدعى «معتز»، صديق لعصام، وأخذ يسعف صديقه الملقى على السرير، بأنفاس تكاد تكون منقطعة وجسد يرتجف، يستمر في محاولة إجراء إنعاش قلبي رئوي، أمه تبكي، وأخته في صدمتها لا تدري ماذا تفعل، فقط دموعها تنهمر بلا هوادة، الرياح تزأر، وصوت محرك سيارة يقترب بالخارج، توقف أمام المنزل سيارة جاره المهندس «عمرو»، الذي ذهب إلى المستشفى وأحضر أحد الأطباء، دخل الطبيب مع عودة النبض لـ«عصام».

خرج الجيران من الغرفة، وتراجع «معتز» ليعطي الطبيب المساحة الكافية ليقوم بعمله، فأخرج الطبيب سماعته وأخذ يفحصه بتركيز، ويدقق النظر في ما يعرف ب«شجرة البرق»، المسار الذي سلكته الشحنة

الكهربائية داخل الجسد، ضربت كتفه ومرت من الجانب الأيسر ثم من خلال رجليه، نظر الطبيب للأم وطمأنها:

-إنه بخير -والحمد لله-، لم يصبه البرق مباشرة، الرجفة بسبب تشنج الأعصاب سأعطيه بعض الأدوية تخففها، سينفعه وجود «معتز» هنا ليتابعه ويخبرني بحالته عبر الهاتف أولا بأول.

أعطاه بعض الأدوية المهدئة، لتحسن حالته، سأله «معتز»:

-أليست غريبة ارتجافته يا دكتور؟

نظر إليه نظرة ذات معنى، وانتحى به جانبًا وتحدثا معًا، قال الطبيب:

-الرجفة غريبة فعلًا يا بني، لم يتضح سببها بعد، على الرغم من انتظام ضربات القلب.

وأخبره أنه يرجح سببها تهيؤ الأعصاب بواسطة الإشارات المرسلة من المخ للجسد ليقاوم الصدمة الكهربائية، أعطاه بعض المهدئات لتخففها، وهذا أقصى ما يستطيع فعله، هو يعلم أن قليلًا ينجو من الصواعق خاصة المصابون اصابات مباشرة وشبه مباشرة، إن وضعه مستقر ويأمل ألا تحدث مضاعفات؛ سأله «معتز» بقلق:

-هل محتمل حدوث مضاعفات؟

أومأ الطبيب بأسى، وهمس:

-كل شيء وارد ، عليك أن تخبرني بتطورات حالته.

يدور عقرب الساعة بسرعته المعتادة، «عصام» راقد على الفراش لا يحرك ساكنًا، توقفت الرجفة ولم يفق، وبالقرب منه أخته «هاجر» تبتهل وتدعو وهي تحتضن كفه، خارج الغرفة تجلس أمه بعينين غارقتين في الدموع، لسانها يبتهل داعيًا بالشفاء لفلذة كبدها، همس «معتز» يواسيها:

-صبرًا يا خالة ذهب الخطر.

مسحت عينيها وأجابته بصوت منتحب:

-كيف والحروق تغطي جسده، وحالته كما ترى.

قال «معتز»:

-لا تقلقي، سينتهي كل ذلك إن شاء الله.

خرجت «هاجر» مبتهجة ودموعها على خدها جارية:

-استيقظ يا أمي.

ركضت إليه واحتضنته، نظر لهم باستغراب وهمس:

-أين أنا؟

شعر «معتز» بالقلق، حدث ما يخشاه، أصيب بفقد مؤقت للذاكرة!

أجابه «معتز» بابتسامة:

-أنت في منزلك، يا «عصام».

أردف بكلمات متقطعة:

-منزلي؟...

-ماذا حدث؟...

-لا أذكر شيئًا، أشعر برأسي يدور ويؤلمني.

نظر لأمه وأخته، شعر الجميع بالصدمة، تمالك «معتز» نفسه، كي لا يُشعر من حوله بخطورة الأمر، أجابه:

-لا داعي للحديث الآن فقط ارتاح واستعيد عافيتك وسنخبرك بما حدث.

استسلم لكلماته، وطلب «معتز» من أهله تركه ليرتاح وألا يضغطوا عليه.

خرج الجميع وتركوه وحيدًا، وصوت الرعد يدوي وأضواء البرق تنير الغرفة وتختفي سريعًا، وما كاد يغفو حتى رأى من يراقبه في أحد أركان الغرفة، بهيئة رجل يرتدي قناع رأس أبو منجل وفي يده صولجان يشع بلون أزرق خافت، انتفض واقفًا والرعب يسري في أوصاله، أراد الهرب لم يطاوعه جسده، حاول الاستغاثة بمن في المنزل صوته لا يخرج من شفتيه، شعر الشخص بحاله، لاحظ العرق المنهمر من جبهته، وضربات قلبه الهائجة، أنفاسه المتسارعة، همس الشخص بوجه جامد، فتردد الصوت في عقل «عصام»:

-مرحبًا بعودتك يا بني، لا تخف.

اقترب منه ووضع يده على صدره لتضيء بلون أزرق كالتي تشع من الصولجان، ارتجف جسده من الهلع، شعر بطاقة تسري في جسده، من يد

هذا الكائن، سرعان ما تبددت، وانحنى وهو ينظر له بدهشة واستفهام، قطع عليه تساؤلاته وتردد الصوت في عقله مرة أخرى:

-استمع إليهم جيدًا لتعرف صاحب الجسد الذي وقع عليه الاختيار، وانتبه أن تكشف نفسك أمامهم، لا تقلق أنا بالقرب منك دائمًا.

وبدأ يردد ترنيمة، وجد «عصام» لسانه يتحرك معه:

«أنا حامي المُلك العظيم. أرقب وأحرس الموضع الكبير الذي ادعاه الإله على الأرض أنا أعيش وهي تعيش. أنا أصير قويًا أستنشق الهواء وأنا أدور لأحمي ملكي. لقد أحبطت فرصة «ست» الفائق القوة. هلا يا من جعلتم العالم لذيذًا بطعام «تشفاو». يا من سكنتم أسفل السماء الزرقاء، اعتنوا بالصغير في مضجعه عندما يأتي إليكم»

صمت قليلًا ثم همس في أذنه:

-أنت «عصام» تلميذي العزيز ستعيش بقلب واحد وعقلين أنت المختار، لديك الآن قوة لا يمتلكها غيرك فأحسن استخدامها.

زاد صوت الرعد اضطرابًا وصارت الغرفة مضيئة لدرجة لا يستطيع فتح عينيه فيها، تحرك مقبض الباب فاختفى الشخص، التفت «عصام» حوله فلم يجده، جثى على الأرض وصاح بكل قوة:

-انتظر لا تذهب، أخبرني بما يحدث.

-٢-

البردية الأولى

دخلت «هاجر» الغرفة حزينة، هلعت حينما رأت «عصام» جاثيًا على الأرض، اقتربت منه لتساعده على النهوض، ولما لمست ذراعه انتفض فزعًا، فسألته:

-ما بك؟ ماذا حدث؟

نظر لها بشرود، الذكريات تهاجم فكره بشراسة، أجابها بوهن:

-أشعر بالألم، لا أقوى على الحركة، لا أذكر شيئًا، كأن جسدي لم يعد ملكي.

اقتربت منه، أخذت بيده إلى السرير، همست بصوتها الدافئ:

-لا تقلق لقد أخبرني «معتز» بصعوبة الوضع، أعاهدك سنتجاوزه معًا كالمعتاد.

كان شاردًا في الشخص الذي ظهر له، يعرفه بالتأكيد، من هو لا يتذكر؟ يعرف أن عليه احترامه وإظهار الولاء له، لا يذكر شيء آخر، والحسناء السمراء يكاد يجزم أنها تحمل ملامح «إيزيس».

-فيما أنت شارد؟

قالتها فأخرجته من سيل الأفكار الجارف، نظر إليها بدهشة فهي تشبه شخص محبوب لديه، هز رأسه مجيبًا:

-عقلي يدور، لا استطيع أن أركز أو استجمع شيئًا مما حدث، الذكريات متداخلة بشكل مرهق.

يغمض عينيه يرى الماضي البعيد، معابد، كهنة، ترانيم، وهو بينهم، طفل صغير يعامل كأمير، يُعامل بحفاوة ووقار، يدخل على مدرسة القصر يستقبله الكهنة باحترام، يعلموه لغة قديمة يفهمها، يتقن الحديث بها، على الرغم من صغر سنه يجادلهم ويناقشهم فيما يُعلمونه، يرى أنه يلهو بين أعمدة المعابد الضخمة بعد يوم طويل من الدراسة، يراها تمسك يده، طفلة صغيرة حنطية البشرة ترتدي زي الأميرات القدماء كـ«هاميس» تكلل رأسها بطوق ياسمين، ينظر لها فتبتسم بسعادة حتى تظهر أسنانها بيضاء ناصعة، يحدث نفسه «نعم إنها هي».

يفتح عينيه، ينفض الأفكار عن رأسه، ينظر لـ«هاجر» الجالسة بجواره، فينتكس سريعًا للماضي القريب فيرى طفولته بأفراحها، سعادتها، أحزانها، يرى نفسه طفل صغير يركض، يضحك بين حقول القمح الذهبية في بداية الربيع، يرى الصغيرة تتعلق في يده بسعادة وهي ترتدي جلباب الفلاحة المصرية، شعرها الطويل مجدول في ضفيرتين يلاحقانها وهي تركض معه، ينظر لها كأنها ليست طفولته يشاهدها أمامه كأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا يثير مشاعره.

جزء منه ينتمي للصغير الذي يركض بين أروقة المعابد يعامل كالأمراء، وآخر يشعر أنه الصغير الذي يركض بين الحقول يستنشق عبير الطفولة، نظر لأخته وهي تغالب دمعة ترقرقت في مقلتيها وهمس:

-أشعر بالتعب... أفتقد الأمان أريد البكاء... لا، بل أريد الصراخ، دموعي متحجرة، الصوت يرتد للداخل يخترق أحشائي... أشعر أن جسدي يتمزق بقوة، أحتاج من يحميني..

سألته بصوت متهدج:

-من أي شيء؟

أجابها بهمس:

-من نفسي، أحتاج الأمان.

كان يتحدث بصوت مختنق بالكاد يتخطى شفتيه، تتابعه بعيون دامعة، لم تستطع تمالك نفسها، فضمته، وهي تمسح الدموع عن عينيه حتى هدأ، ظنت أن النوم غلبه، تنظر إليه كأنه طفل في العقد الثالث من العمر، وتحدث نفسها «هكذا هم الرجال يتقنون تمثيل القوة والصلابة، إلا أنهم دائمًا في حاجة لذلك الركن اللين، الذي يمتص أعباءهم ويطردها عنهم» قررت أن تكون ذلك الركن الذي يجد فيه قوته؛ نظرت من بين دموعها لملامحه المتشبعة بشمس طيبة الحارقة، احتضنته هامسة:

-لا تقلق يا أخي أنا هنا بجوارك.

كانت عيناه هائمة في أرجاء الغرفة وقع بصره على صورة وهو في معبد «أبيدوس» وأخرى بجوارها في معبد «إيزيس»، وهو يتساءل عن ذلك الشخص الذي رآه، أضاء البرق الغرفة فتحركت الرموز الهيروغليفية في خلفيات الصور لتشكل اسم «تحوت» وارتد صدى صوت في عقله بنفس

الاسم، تذكر معلمه فهمس بصوت خافت «معلمي تحوت»، لاحظت «هاجر» نظراته المتعلقة بالصور، راودتها فكرة، اتجهت لخزانة صغيرة بجانب السرير، أخرجت حقيبة جلدية عتيقة، فتحتها لتأخذ منها صورًا فتوغرافية، كانت تحتفظ بها منذ صغرها، تشبه التي ينظر لها، وتحمل الكثير من ذكريات طفولتها وأخذت تحدثه لتعيد عليه أحداثها:

-انظر هذه كنت في الثانية من عمرك كنت بريئًا للغاية، ثانية في الروضة في رحلة لزيارة المعبد وأنا خائفة أتشبث بيدك، بدا عليك الشغف في الزيارة لذا كررتها كل عام، هنا أيضًا أنت و«معتز»، و..

قاطعها:

-انتظري أعيدي صورتنا السابقة

أمسك الصورة بيده وقربها إلى وجهه وأخذ يمعن النظر فيها، هي الفتاة في المعبد تمسك يده، وفي الحقل تركض معه، تفاجأ أنه يستطيع قراءة الكلمات الهيروغليفية في خلفية الصورة، تمتم بصوت هامس بكلمات لم تفهمها، أخذ يجمع الصور، وكل صورة يظهر بها حروف هيروغليفية وسط دهشة وتعجب من «هاجر»، طرقات على الباب، دخلت أمه وابتسمت رغم دموعها، أسرعت إليه واحتضنته، وهي تشكر الله.

....

مرت الأيام على القرية بسلام، تماثل «عصام» للشفاء سريعًا، استعاد جزء كبير من تفاصيل حياته، إلا أن بعض الكوابيس الغريبة استمرت في ملاحقته، يستيقظ على صوت كترانيم الكهنة، يتردد صداه في المكان، أتقن

قراءة الكتابة الهيروغليفية مما جعله يشعر بوجود شيء غريب فيما حدث، بل وفي ذلك الشخص الذي ظهر له مرة وحيدة واختفى، كأنه هلاوس من أثر الصدمة -كما قالت له «هاجر»-؛ في أحد الأيام الصيفية يسترخي على فراش وضعه على سطح المنزل، ليتنفس عبير الحقول الخضراء المحيطة بالقرية، تلبدت السماء بالغيوم بسرعة كالدخان الذي يتبع الانفجار، وبدأ البرق بإرسال أشعته إلى الأرض، ضربت إحدى الصواعق جهاز الاستقبال الخاص بالتلفاز، لم تترك له فرصة للهرب، لم تختف بل ظلت الصاعقة متصلة، كأنها قيدت قدميه، تجمعت الأشعة الصغيرة على هيئة نفس الرجل برأس أبو منجل المنقوشة على جدران المقابر والمعابد، اقترب من «عصام» فحنى رأسه احترامًا، وهمس:

-معلمي «تحوت»

حدثه بصوت مثل ذلك الصوت الذي يطارده في أحلامه، الصوت يتردد في عقله مباشرة، لغة غريبة يفهمه ويحادثه، وعلى الرغم من الجدية المرتسمة على وجهه إلا أنه يكاد يلمح ابتسامة مطمئنة، فبث في عقله باللغة الغريبة:

-لقد حان الوقت أيها المستشار الصغير.

وقف أمامه، فمد له مخطوطة من ورق البردي، وتردد صوته:

-اقتربت المهمة الكبرى، ويجب عليك الرجوع إلى عملك بأسرع وقت...

سأله:

-كيف؟ توقف المشروع منذ شهور و...

قاطعه بهدوء:

-لا تقلق كل شيء تم التخطيط له، يجب عليك العثور على مفتاح العودة سريعًا، ولا تنسى مهمتك الأولى، يجب أن تنهيها قبل أن تجد المفتاح.

أحنى رأسه وطلب منه مده ببعض المعرفة، فاقترب منه وبيدين تشعان كأشعة البرق صغيرة، مسح على رأس «عصام» وأخذ يتمتم ببعض التراتيل ذات اللحن الجميل مع غرابتها، ازدادت أشعة البرق قوة، ودوت انفجارات الرعد، ارتجف جسد «عصام» كمن أصابه ماس كهربائي.

رفع يداه فسقط «عصام» على فراشه فاقدًا وعيه، تراجع معلمه للخلف ليدخل تحت أشعة البرق ورفع صولجانه، اختفى ، وعادت السماء كما كانت.

لم يدر «عصام» كم مر عليه من الوقت في سباته، نهض بأنفاس متسارعة ونظر إلى المنازل المجاورة له، ليرى إن كان أحد شعر بما حدث أم لا، يبدو أن البلدة جميعها تغط في سبات عميق، حتى أطل الفجر بنسائمه العليلة، فيتساءل أهل القرية فيما بينهم، «هل حقًا كان هناك برق ورعد الليلة الماضية؟ أم انفجارات خلفتها أعمال التنقيب عن الآثار؟ ومتى يكف أولئك اللصوص عن محاولة سرقة الكنوز العظيمة؟» أسئلة متشابكة متتالية تخرجهم عن أصل الموضوع، هذه عادات أهل القرية! قد يكون بينهم طفلًا جافاه النوم ورأى ما حدث، وبالطبع مع جزمه بأن ما يرويه حدث بالفعل إلا أنهم لن يصدقوه.

عاد «عصام» إلى فراشه، وذهب عقله في المعرفة التي مُنحت له، وفتح البردية ليقرأ ما كتب فيها، عن مهمته، أخرجه من شروده صوت «هاجر»:

-«عصام» هل تتناول معي الشاي؟

التفت إليها لكنها لم تنتظر إجابته فأردفت:

-شعرت بأنك ما زلت مستيقظًا ولم أستطع النوم فهل تشاركني كوب من الشاي؟

ابتسم وهو يخفي البردية تحت وسادته، وأجابها بسعادة:

-بكل سرور أميرتي الصغيرة.

أحضرت إبريق الشاي وأتت وجلست على طرف الفراش، وصبت كوبين من الشاي، سألها «عصام»:

-ما الذي يقلق منامك حتى الآن؟

أجابته متنهدة:

-أنت تعرف صعوبة المواد، أذاكر حتى يتوقف عقلي عن الاستيعاب، حينما أذهب للنوم أشعر بالقلق، لا أستطيع اختطاف ساعات قليلة منه.

قال يحفّزها وهو يربت على كتفها:

-لا داعي للقلق يا صغيرتي فإن مستواك مطمئن جدًا.

ردت بابتسامة:

-يجب أن أحافظ على المركز الأول.

ضحك وسألها ساخرًا:

-ألا يكفي أن تحصلي على المركز الأول في الفرقة الأولى في العام الماضي؟

قالت بلهفة:

-لا لن يكفيني إطلاقًا إلا أن أحصد المركز الأول في الأعوام الأربعة، وتكون شهادتي في قسم التاريخ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.

ضحك وهمس:

-حسنًا أنتِ تعلمين حبي للتاريخ خاصة تاريخ المصريين القدماء فإن احتجت للمساعدة فأنا موجود ومتفرغ لك.

أجابته ضاحكة:

-إذن مراجعة مواد التاريخ مصر القديمة من الدولة الوسطي حتي الفتح المقدوني عليك.

صمتت قليلًا ثم أردفت مازحة:

-وإن أثبت براعتك سأجلب لك كل طلاب الفرقة الثانية تاريخ من كلية آداب أسوان تشرح لهم المقرر، بشرط يكون لي نسبة من أرباحك.

ضحك وقال:

-إذن سأجهز نفسي من الآن.

أجابته:

-وأنا سأجهز حقيبة لجمع الأموال.

صمتت قليلًا، ثم سألته:

-متى ستعود لعملك في الهيئة؟

ابتسم وهو يأخذ رشفة من كوب الشاي وقال:

-قريبًا يا صغيرتي

وأخبرها أنهم بعد أيام سيبدؤون في إعادة العمل على اكتشاف المقبرة رقم «٤٥٥» فقد ظهرت دلالات على وجود أجزاء بها لم تفتح حتى الآن، ويرجو أن يستدعوه للمهمة.

عقب بأسى:

-أتمنى أن يستدعوني معهم، فقد مللت من البقاء بلا عمل.

قالت وهي تنهض:

-إن شاء الله، حسنًا سأحاول النوم لأني سأذهب صباحًا للجامعة لدي محاضرة هامة.

سألها بابتسامة:

-ما رأيك أن أوصلك؟

أجابته بسعادة:

-رائع. لكن لماذا؟

أخذ الرشفة الأخيرة من الشاي وأجابها:

-أبحث عن بعض الكتب في مكتبة الجامعة.

قالت وقد غمرتها السعادة:

-حسنًا وأنا ألحق بك بعد أن تنتهي المحاضرة.

ابتسم وهمس:

-حسنًا اذهبي للنوم الآن، تصبحين على خير.

-٣-

عبق التاريخ

عاد يقرأ في البردية بتمعن، ارتسمت علامات السعادة على وجهه، ملامحه تشي أنه علم مهمته، ويخطط للبداية.

في الصباح ذهبا للجامعة في محافظة أسوان بسيارة والدهما، وحينما وصلا كلية الآداب ودّعها لتلحق المحاضرة، ذهب إلى المكتبة، ليبحث عن الكتب المتخصصة في تاريخ مصر القديمة، ليعثر على أقرب الكتب التي تفيده في مهمته، يمسك الكتاب يتصفح المقدمة والفهرس فلا يجد فيه هدفه، يتركه ويذهب لغيره، وبينما هو تائه وسط عبق الماضي يأتيه من خلفه صوت رقيق كالناي:

- «عصام»؟ ماذا تفعل هنا؟

قالتها بلهجتها الصعيدية العذبة، نظر إليها بابتسامة، فتاة سمراء ارتسمت الابتسامة على وجهها، رشيقة القوام متوسطة الطول، ترتدي عوينات طبية تزيد عينيها السوداء جمالًا، نظر إليها فمرت في خاطره صور المعبد القديم، يمسك بيد الطفلة الصغيرة، يركض، يلهو بين الأعمدة عندما أوقفه صوت طفلة صغيرة تناديه باسم لا يذكره يعلم أنها تقصده، الشبه كبير بينها وبين فتاة المكتبة الواقفة أمامه، لم يلحظ شروده وهو ينظر لها، أشارت بيدها أمام وجهه، وقالت:

-المعذرة يبدو أنك لا تذكرني؟!

أجابها بابتسامة خجلة:

-كيف لا أذكرك؟! «شيماء» المتفوقة صديقة الدراسة.

ابتسمت على استحياء وردت:

-الحمد لله ما زلت تذكرني، ماذا تفعل هنا؟

تناول كتاب من الرف المجاور، وأجابها:

-أبحث عن كتب تتحدث عن تاريخ مصر الذهبي.

سألته بدهشة:

-وما عملك بها؟ أم ستجعلها موضوع رسالة؟

أومأ برأسه وهو يقلب بصره في الأرفف:

-شيء من هذا القبيل.

قالت وهي تضبط عويناتها:

-ما زلت تفضل إخفاء ما تفكر به، وما تنوي فعله، لن تتغير، تعال معي سأساعدك.

همس مبتسمًا:

-وأنت ما زلت خدومة كما عهدتك.

ذهبت إلى مقعدها عند طاولة القراءة، أعطته ثلاث كتب

تصفحها بدهشةٍ ثم سألها:

-«لغز الهرم الأكبر» و«قادة مصر الفرعونية -أحمس» و«فجر الضمير» لِمَ تحتفظي بهذه الكتب؟ ماذا تفعلين بها.

قالت:

-أحضر ماجيستير في قسم الآثار، وموضوعاتها مرتبطة بشكل ما بالحضارة المصرية القديمة، وأنا أبحث عن موضوع جديد وسلس لم يتناوله أحد قبلي، حتى يتم قبوله.

أجابها:

-إذن أنتِ بحاجة لها أكثر منّي الآن.

أردفت وهي تتصفح موقع إلكتروني:

-لا تقلق بعضها موجود نسخة إلكترونية على شبكة الانترنت، لكني أحب الكتب الورقية فهي مريحة للعين وسلسة في البحث، فقط اقرأها وأعدها لي وإن احتجت لأي مساعدة أخبرني، فإن ذلك يسعدني.

همس بامتنان:

-شكرًا لكِ، يبدو أني سأرهقكِ معي.

أضافت:

-اعطني البريد الإلكتروني الخاص بك وسأرسل لك بعض الكتب الإلكترونية التي قد تنفعك أيضًا. هل أخبرتك «هاجر» أننا تقابلنا من قبل؟

أجابها وهو يكتب بريده الإلكتروني:

-وهل تعرفين «هاجر» أختي؟

وقبل أن تجيبه جاءت «هاجر» وهم يتحدثون، فقالت ضاحكة:

-يبدو أنك وجدت رفيقًا منذ أول يوم.

ابتسم وقال:

-«شيماء» صديقتي منذ أيام الدراسة الجامعية...

قاطعته بابتسامة:

-لا ترهق نفسك نحن نعرف بعضنا منذ العام الماضي وسألتني عنك، حينها ساعدتني في بعض الدروس الصعبة؛ هل وجدت ما تبحث عنه.

أجابها وهو يشير للكتب الثلاثة أمامه على الطاولة:

-إلى حد ما.

قالت «شيماء»:

-لم يجد شيئًا لكني ساعدته.

أجابها بامتنان:

-حقًا، شكرًا لكِ.

جلسوا يتبادلون أطراف الحديث بعض الوقت، ثم وضع الكتب في حقيبة «هاجر» وقال لهما:

-ما رأيكما أن نتناول الغداء معًا اليوم.

قالت «هاجر»:

-أنا موافقة طبعًا بلا أي تردد، ماذا عنكِ يا «شيماء»؟

هزت رأسها بخجل:

-اعتذر لن استطيع فإن والدتي لا تتناول غداءها بدوني.

اقترح «عصام» أن يشربا القهوة معًا وأن يوصلاها بالسيارة، فوافقت، وبعدما أوصلاها لمنزلها عادا للمنزل وبعد أن تناول غداءه مع أمه وأخته جاءته رسالة بريد إلكتروني، ففتحها سريعا، وجد أن «شيماء» أرسلت له بعض الكتب الخاصة بالحضارة المصرية القديمة، تصفحها بنهم، لمعت عيناه وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ونظر إلى البردية وتمتم:

-«ها يا عزيزتي قد ظهرت بداية الطريق»

لمعت حروفها وتردد في عقله كلمات كأن البردية تجيبه:

«قد تكون معرفة الطريق الذي يجب أن نسلكه أصعب من العراقيل والعقبات التي تقابلنا، طريق العودة إلى الوطن صعب لكنه يُحتمل، لأنه الطريق لتغيير المستقبل، لقد آن الأوان أيها الشعب المقدس لتزفر آخر أنفاس الركود»

عاد بنظره إلى الكتب المرسلة إلى جهازه اللوحي، وأخذ يتفحصها بنهم شديد، وبدت عيناه كأنها تشع باللون الأزرق، طرقت «هاجر» الباب أذن لها بالدخول اندهشت من حجم السعادة على وجهه، قالت:

-إذن قد وصلك الخبر

سألها:

-أي خبر تقصدين؟

أجابته بدهشة:

-يبدو أن الأخبار السعيدة كثيرة اليوم، سأقول لك بشرط أن تعدني بمكافأة.

ابتسم قائلًا:

-ماذا تريدين مكافأة يا أميرتي.

ضحكت وهي تقول:

-ستضحك علي بالكلام المعسول.

همس:

-أعدك أنه ليس بكلام معسول.

نظرت إليه بابتسامة وقالت:

-أريد رحلة نيلية كما كنا نفعل في عطلة نهاية الأسبوع.

هرش لحيته الخفيفة وقال بابتسامة:

-موافق ما هو الخبر إذن؟

أخبرته بسعادة:

-الهيئة اعلنت عن استدعاء عدد كبير من مهندسيها لبدء العمل في المقبرة «٤٥٥»، اسمك في القائمة، وسيصلك رسالة إلكترونية بذلك في خلال ساعات.

توهج وجهه دهشةً وسألها:

-هل تمزحين؟ من أخبرك بذلك؟

قالت:

-لا أمزح أخبرتني صديقة لي يعمل زوجها في الهيئة منذ زمن أنت تعرفه «المهندس نور».

وضع يده على جبهته وتمتم:

-آه... «المهندس نور» لقد وعدني بعد الحادث بمفاجأة، إذن هذه هي.

صمت قليلًا ثم أضاف:

-شكرا على الخبر الجميل، لن نذهب في رحلة نيلية.

شعر بتغير وجهها فضحك وأردف بسرعة:

-لا تكوني سريعة الغضب، سأحجز لك في الرحلة من الأقصر لعروس البحر المتوسط ولمدة أسبوع كامل.

ردت بقلق:

-الدراسة، المحاضرات؟ أمي لن تقبل.

قال بابتسامة:

-سأراجع معك دروسك ثلاث ساعات يوميًّا، هناك وقت قبل الامتحانات النهائية.

أجابته بمكرها المعتاد:

-حسنًا خمس ساعات كافية وأكون جمعت بين الدراسة والرحلة.

ضحك معترضًا:

-لم أقل خمس ساعات أيتها الماكرة.

وبينما هما يتحدثان جاءه تنبيه رسالة إلكترونية نظر إلى الجهاز اللوحي وقال:

-هيا جهزي حقائب السفر.

-٤-

إعدام الحضارة

أخبرت «هاجر» والدتها، وترجتها لترافقهم، بلا جدوى، انصرفت لتجهز الحقائب، دخل «عصام» على موقع الانترنت لحجز تذاكر الرحلة، ولما أخبرها أن الموعد بعد يومين.

فصاحت «هاجر» بمرح:

-فلترفع الأشرعة وتسير السفن لغزو الشمال، الخميس موعدنا.

ضحك الجميع، قالت والدتها ساخرة:

-تظنين نفسك حتشبسوت، أم كليوباترا لتغزي الشمال؟ وأنت تخافين من القطط، وتهملين دروسك أيضًا.

ضحك «عصام» وقال:

-لا تقلقي، ثم أنك ذاهبة معنا، تهتمين بها بنفسك.

قالت مازحة:

-أنا لا يقلقني إلا تدليلك لها، ثم أني لا استطيع ترك المنزل.

همست «هاجر» برجاء:

-أتصل بأبي وآخذ منه الإذن بالموافقة.

ضحكت وأجابتها:

-والله مهما تفعلان لن أذهب لأي مكان وأترك منزلي.

تمتمت «هاجر» بحزن:

-حسنًا كما تشائين، لا ترهق نفسك معها لن تقبل.

أومأ برأسه ثم سألها:

-حسنًا، ما العمل في التذكرة الثالثة الآن؟

قالت «هاجر»:

-تعجلت بالحجز، يمكن إرجاعها أو نعطيها لأحد صديقاتي.

قال:

-أحد صديقاتك؟ لا إطلاقًا

قالت بمكر:

-نعطيها لـ«شيماء».

شرد قليلا، حركت «هاجر» يدها أمام عينيه وتنحنحت قائلة بابتسامتها الماكرة:

-فيما أنت هائم؟

ابتسم مجيبًا:

-«شيماء» لن تترك والدتها في المنزل وحيدة، فهي كبيرة في السن وبحاجة للرعاية.

ابتسمت بمكر وقالت بثقة:

-اخبرتني ونحن في السيارة أن والدتها ذاهبة لبيت أخيها في «إسنا» وستبقى هناك لبضعة أيام وهي لا تحب أن تبقى هناك لأن بيت خالها لا يوجد فيه بنات في سنها تبقى معهم.

تمتم بدهشة:

-كل ذلك تحدثتما فيه ونحن في السيارة؟ يبدو أني لم أكن معكما.

ضحكت ونظرت له نظرة ذات معنى:

-إطلاقًا لم تكن موجود، دعك من هذا، سأتصل بها وأرى ستوافق أم لا؟

أومأ موافقًا على رأيها، سألته:

-هل أخبرت أبي؟

أجاب بابتسامة:

-بالطبع وأخبرني أن أمي سترفض مرافقتنا، لسوء الحظ حجزت التذاكر بالفعل.

همست وهي تخرج هاتفها:

-حسنًا سأتصل ب«شيماء».

***

عاد لغرفته ليطالع الكتب، ويجمع الخيوط، ينسج منها حبال ليربط الحقائق ببعضها، ليصل لمبتغاه، والسر المقدس بالنسبة له.

وقع نظره على كتاب «الهرم الكبير» تساءل في نفسه «لقد قرأته من قبل، ومع ذلك كل مرة أقرأه كأنها الأولى» أخذ الكتاب وقرأ حتى الصفحة الثالثة عشر وتوقف عند هذا النص...

«على أثر استيلاء يوليوس قيصر على الإسكندرية عام ٤٧ق.م، وإحراقه الأسطول المصري احترقت بعض معالم المدينة، ومن أبرزها مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التي كانت تعتبر منارة العلم في ذلك العصر واحتوت عددًا كبيرًا من المجلدات التي قدر بعض المصادر عددها بحوالي ٧٠ ألفًا.

وكان قسم كبير من مجلدات هذه المكتبة يتعلق مباشرة بتاريخ مصر الفرعونية، وأهمها كتاب «تاريخ مصر» المؤلف من ٣٠ مجلدًا كتبه باليونانية الكاهن المصري «مانيثو» (Manetho) بتكليف من بطليموس الأول، وريث الإسكندر ومؤسس سلالة البطالمة التي حكمت مصر طوال ثلاثة قرون.»

وتمتم بحزن:

-الآن علمت سبب أمر المخطوطة بالذهاب إلى الإسكندرية.

وقع بصره على الصفحة التالية فشعر برجفة جسده وهو يقرأ...

«بحلول القرن الرابع للميلاد كان الأمر استتب للمسيحية بصفتها الديانة الرسمية والرئيسية للإمبراطورية البيزنطية. وفي خطوة ذات مضاعفات تاريخية بعيدة المدى، أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩١م، مرسومًا بإغلاق جميع المعابد الوثنية في جميع أنحاء

الإمبراطورية. ورغم أنه لم يكن في مصر آنذاك إلا حفنة قليلة من الذين يعبدون آلهة مصر القديمة فإن إغلاق المعابد الفرعونية أدى إلى اضمحلال الثقافة الهيروغليفية ومعها معرفة قراءة النصوص القديمة المتوارثة بالتقليد. ذلك أن مهمة هذه المعابد ومعها رجال الدين، لا تقتصر على الإشراف على طقوس العبادات اليومية فحسب، وإنما تعليم اللغة الهيروغليفية وقراءة النصوص القديمة. وحينما اختفى الضالعون بالهيروغليفية لم يبق من يفهم النقوش والمخطوطات القديمة التي كانت تمتلئ بها المكتبات. حضارة عريقة بكاملها قُطعت الصلة بها في واحدة من أكبر المجازر الفكرية الحضارية.

كانت مكتبة معبد سميراميس في الإسكندرية تحتفظ بنسخة من هذه المصادر القديمة، ولكن الحمى ضد الوثنية أدّت إلى إغلاق المكتبة ومن ثم إحراقها بدورها. وهكذا فإن المخطوطات الشهيرة التي سلمت من حريق العام ٤٧ق.م لم تسلم من الحريق الجديد المتعمد. وبحلول العام ٤٥٠م كان كل أثر للعلم والمعرفة الهيروغليفيين قد زال كما أن معظم ما كتبه المصريون بأنفسهم باليونانية زال بدوره من الوجود. وما وصلنا من مانيثو فهو ما نقله عنه مؤرخون قدامى أمثال يوليوس الأفريقي وايسوبيوس ويوسفوس. أما الأصل فقد اختفى من الوجود.»

نمى في قلبه الحقد على الذين دمروا تاريخًا عظيمًا باسم الدين، طرقت «هاجر» الباب ودخلت فلما رأت تبدل حال أخيها سألته بقلق:

-هل حدث شيء؟

رسم على وجهه شبه ابتسامة وأجابها:

-لا شيء.

ساد الصمت، ثم سألها:

-هل حرق البيزنطيين لمكتبات الإسكندرية من الدين؟ هل وجود المكتبات بما حوت من تاريخ وكتب علمية وطبية ودينية يهدد دين التوحيد؟ هل إغلاق المعابد التي تخرّج الشباب العالِمين برموزنا الهيروغليفية هو من يحمي الدين؟ اللعنة على أولئك الجهلة المتغطرسون.

أجابته بأسى:

-هؤلاء مُدّعين حماية الدين لا يعملون إلا لحماية مصالحهم الشخصية، وترسيخ حكمهم فقط.

وذكرته بأنهم من خذلوا المسيح، وحاربوا الدين وقتلوا القساوسة والرهبان وهجّروهم إلى الصحاري والجبال بل وطاردوهم خلالها، كما كانت بعض الجماعات المسلمة التي كانت تنادي بتحطيم الآثار وهدم المعابد، ولو أن هذا من الدين ما كان ترك صحابيّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «عمرو بن العاص» المعابد حينما دخل مصر، أضافت:

-لم يدمر الدين المكتبات والمعابد والتاريخ، لكن الجهل هو من فعل ذلك، المسيحية والإسلام بريئان من هذه الجرائم.

نظر إليها وقال:

-صدقتِ لكن كلما قرأت هذا الكتاب يثير حزني على الحضارة التي انفصلنا عنها وعن العلوم والطب وسر التطور الخفي الذي وصلت إليه.

لكن دعك من هذا الآن هل اتصلتِ ب«شيماء»؟

أجابته:

-نعم ووافقت.

أخفى ابتسامة وقال:

-حسنًا.

-٥-

نهاية الحضارة

كانت المملكة المصرية تعيش أزهى عصورها، قوة وعلمًا وتقدمًا لم يضاهيه مثيل من قبل، كانت الصروح الهرمية الكبرى تجمع الطاقة المتناثرة بين أجرام المجرة، بهندسة عجيبة تحولها إلى طاقة تسير بها المركبات وتبحر بها السفن، وتعمل بها آلات النحت والقطع العملاقة؛ تعمل بقوة منذ عشرات القرون بل فاقت قوتها حدود توقعات بُناتها، وصنعت بلورات الطاقة الصغيرة التي لا تتخطى النصف متر ارتفاعًا ومثله عرضًا لتستخدم في كل مكان، حتى في المنازل لإضاءة ظلام الليل، يسرت الكثير من الأعمال الشاقة في المملكة لتريح الإنسان من جهد عظيم يبذله، اكتفى بالمراقبة والتخطيط ونعم بالراحة الجسدية، لم يكتفِ الحكام بذلك، سخروها لحفر الصحاري واستخراج كنوز الأرض من المياه، الذهب، الفضة، المعادن، من قلب الصخور الصماء، صنعوا الأسلحة المتطورة وضموا البلاد التي وطأتها أقدامهم لتكن الطاقة سلاح لا يقهر، امتد حكمهم من شمال أرض كنعان حتى جنوب أرض كورش، تطورت مدائن المملكة وانتشر البذخ والرفاهية كل مكان، هاجر إليها الكثير من سكان الصحراء وأقاموا بها لينعموا بما نعم به أهل المملكة.

الحاكم الشاب يقف في شرفة القصر التي تطل على مدينته المزدهرة، الشرفة مرتفعة ومصممة لتكشف جميع شوارع العاصمة، يقف فيها بقوام ممشوق وعضلات متناسقة بداية من القدم والبطن حتى عضلات الصدر، يستر جذعه السفلي بالتنورة البيضاء والحزام الذهبي المزخرف بالتراتيل الهيروغليفية، الطوق الذهبي المرصع بالألماس والأحجار الكريمة على كتفه يزيده هيبة، تاج المملكة المزدوج يعلو وجهه المكتسي بعلامات الحكمة والقوة المشعة من عيناه البنية كأنها نار في مصباح بلوري، كيف لا وهو تلميذ كبار الكهنة ودرَّبه أمهر القادة، الذين خدموا آباءه وأجداده، قدم له الساقي كأسًا من النبيذ، قربه لثغره ببطء، ارتشف منه رشفة وهو يتابع تحركات أهل المدينة من شرفته، تزاحمت على رأسه التساؤلات؛ «كيف يعيش أولئك الناس في سعادة غامرة ويستسلمون للموت في ريعان الشباب؟ لماذا مع ذلك الرقي والتقدم يتقلبوا ألمًا حتى الموت؟ متى اعتادوا الموت وصاروا يتجرعوه كالنبيذ؟ على الرغم من طعمه المر إلا أنهم يظهرون كأنهم عشقوه ويتجرعوه بلذة»

أخرجه من تساؤلاته صوت الحاجب بعد أن قدم التحية:

-سيدي الملك أتى الكاهن المعظم «خياتوت» ويطلب الإذن للمثول أمام جلالتكم.

استدار وأشار له ليدخل، فتقدم بخطوات بطيئة يتكئ على عصا برأس ابن آوى، يستعين بها على نصب جسده الذي أحناه الزمان، راسمًا البسمة على وجهٍ أنهكته التجاعيد، وعينان تكادا ألا تبصرا طريقهما، يغطيهما

حاجبان أشيبان كثيفان، ورأس انحسر الشعر عنه إلا عن جانبيه، هز رأسه بحركة اعتاد الناس أن يروها تلازم كلماته، فقال بصوت واهن يكاد يكون همسًا:

-مولاي الملك المعظم صاحب الجلالة والوقار، أدامك الإله لترعى عيناك البلاد ويحمي درعك العباد، وليجري النيل أمامك بالخير المداد.

اقترب الملك الشاب من الكاهن بخطوات وئيدة، وأخذ بيده وأجلسه بالقرب منه وهمس قائلًا:

-أنت تعرف سبب مثولك هنا اليوم.

هز الكاهن رأسه وقال:

-لا يخفى على حكيم ما تعانيه البلاد من تدهور خطير مغلف بقوة ورفاهية، لذلك يا مولاي لا يراه إلا الحكماء.

صمت قليلًا ثم هز رأسه وأردف:

-لكن يا مولاي لماذا استدعيتني الآن؟ بعدما ضعف بصري وصرت لا أقدر على التحكم في اهتزاز رأسي، أنا أعلم أنك ترى ذلك الخطر قبل أن تتولى الملك، وقد مر على حكمك سبع سنين، وظننت أنك انخرطت في رفاهية الملوك، وأنستك لذتها الخطر المحدق بأهل المملكة.

التفت إليه بنظرات واثقة وقال:

-لم أنسَ ولم اتغافلْ، كنت أوطد أواصر الملك، وعلى الرغم من مرور السنين إلا أن السيطرة على المعابد صعبة، إن لم تكن من المحال.

فسر له انشغاله باقتلاع جذور من يقفون في طريق صحوة الناس، وسبب استدعائه لأنه شعر بمؤامرة تحاول الإطاحة بملكه، وإيقاف إصلاحاته للمملكة، ويتهمونه بخيانة الإله والكفر به.

نظر له الكاهن بقلق وقال مع اهتزازة من رأسه:

–حفظ الإله مولاي المعظم، من ذا الذي يجرؤ على اتهام مولاي بالكفر إلا من ضل السبيل وأخطأ الطريق وضاعت خطاه في بحور الظلمات.

أضاف الملك وهو يأخذ رشفة من كأسه:

–الشر. الظلم. الحقد. أشياء تجتمع في النفوس ضعيفة فتصبح أخطر على المملكة من الحروب والغزوات، يجب تقويم النفوس وعلاجها.

أجابه:

–يا مولاي طريق الإصلاح صعب وطويل، وقد لا تكفي أعمارنا لأن تنهيه؟

تنهد الملك الشاب وقال:

–إن لم يكن هناك غيره، يكفي أن نبدأه.

نهض الكاهن العجوز وهو يستند على عصاه بيد وعلى كتف الملك بيده الأخرى، وهمس للملك:

–أنا رهن كلمتك، انظر متى تجمع مجلس الكهنة والحكماء، وسأكون معهم لنجد حلًا جذريًّا للكارثة.

أجابه الملك بنصف ابتسامة وقال:

-سأجمعهم وأعدك بالحل في ذاك اليوم.

نظر إليه الكاهن بتساؤل، لكن الملك لم يمهله وأشار له لينصرف، فانصرف متكئا على عصاه المرهقة بثقل الجسد العجوز وزاد ثقلها تساؤلاته، أمر الملك الساقي فصب له النبيذ وتابع الكاهن العجوز وهو ينصرف نظرات حادة لا ترى إلا مستقبل المملكة.

مرت أيام وأهل المملكة غافلون عما يحدث، الموت من حولهم لا يلفت انتباههم، غارقون في ملذات الحياة ونعيمها، اعتادوا فراق أحبائهم بذلك المرض الذي يخبرهم بقرب الوداع، ما هي إلا أيام يتلوى فيها المريض ألمًا ثم يتوقف الجسد عن الحركة، ويسلم روحه لرب الأرواح، أعداد الرجال تتناقص، ضعف الجيش، تعرض لعدة هزائم، تراجع عن بعض البلاد التي يسيطر عليها، صارت الآلات أكثر من أعداد البشر في المصانع والحقول، موت الأجنة لم يلفت انتباههم، بين كل عشرة أجنة فقط ينجو ثلاثة، أمراض العقم التي أصابتهم لم تكن ذات صوت يسمعهم ناقوس الخطر، كان يجب على الحكماء أن يتدخلوا لإيقاف المصيبة التي تحلق فوق رؤوسهم بأجنحة البوم ولون الهواء.

جاء اليوم المحدد لانعقاد المجلس، وتجمع الحكماء والكهنة، وتراصوا صفين متقابلين في قاعة ضخمة مكتظة بالتساؤلات العاصفة بعقولهم، زينت بالتراتيل والأناشيد القديمة، وتسطر على الجدران الحجرية مفاخر

أسلافهم وبطولاتهم، القاعة بسقف حجري مفتوح منتصفه للسماء لتلقي أشعة الشمس على المجلس بركاتها، تتعامد عليه لتربط مجالس الحكماء والكهنة بمجلس الملك على بعد خطوات، عن يمينه مجلس خصص لمستشاره، وعن يساره مجلس للكاهن العجوز «خياتوت»، وفي صفين متقابلين أمام الملك يقف ممثلي المعابد التسعة عن يمينه برؤوس ضخمة صلعاء وبطون كبيرة ممتلئة بخيرات أبناء المملكة، والحكماء وأولهم كبير الحكماء «بيداست» عن شماله بأجساد نحيلة وشعر مجدول في ضفائر أو مسرح إلى الأكتاف، نفخت الأبواق إيذانًا بدخول الملك ومستشاره الشاب الحنطي البشرة ذو القوام الممشوق، والكاهن «خياتوت»، ركع الجميع تحيةً للملك، حتى جلس، وافتتح مواعظه بذكر الأجداد ومفاخرهم التي يقدسونها، ثم أشار لكبير الحكماء، وقال:

-أخبرنا أيها الحكيم «بيداست» ماذا لديك من حلول فيما أخبركم به رسول القصر، وكيف نتخلص من الخطر المحيط بالمملكة؟

أحنى الحكيم رأسه واستهل كلماته بالثناء على الملك الشاب وحكمته واهتمامه بأحوال المملكة، ثم قال:

-يا جلالة الملك المعظم بعد أن استشرت مجلس الحكماء، وعرضت عليهم ما يقلق ذهن صاحب الجلالة، من انتشار الأمراض المستعصية على الحكماء، وعرضت عليهم ما أرجعتموه جلالتكم وربطتموه بأسباب غير دقيقة ابتعدنا بذلك عن السبب الرئيسي وتجاهلناه، وذلك عائق بين العلاج والأمراض المنتشرة.

قاطعه كبير الكهنة بغضب:

-الطاقة التي تخرج من الأهرام المنتشرة في أنحاء المملكة السبب في الأمراض، لا سبب آخر، من الجيد أن تعترفوا بفقدكم السيطرة عليها، ولا يوجد علاج للأمراض التي تغزو أجسادنا كل يوم.

رمقه الملك الشاب بغضب فسكت، التفت الحكيم للكاهن وأردف:

- لا يجب أن نستغني عما صنعه أجدادنا من حضارة وتقدم ونعود أدراجنا إلى عصور الظلام والأحجار.

أجابه كبير الكهنة معترضًا على ما قاله:

- ما تنعتها بعصور الظلام والأحجار البذرة المنبتة لحضارتنا، العودة إليها بأيدينا خير من رؤية البشر يبادون ببطء، قدستم أهرام الطاقة، عزف الناس عن عبادة الآلهة، كأن الأهرام الواهبة للحياة، المعابد فرغت من المصليين، الناس ملتفون حول أحجار غزت بأمراضها كل المملكة.

رد عليه الحكيم بغضب:

-تدمير مصادر الطاقة يسقط المملكة من القمة للقاع.

وبيّن كيف ينتشر الجهل ويعم الفساد في المملكة، مع ذلك لن تنتهي الأمراض المنتشرة في أنحائها، القول أن البشر سيبادون ببقاء الطاقة خطأ عظيم، انظروا كيف يعيشون حياة سعيدة، تقولون أنها قصيرة، وهذا سببه سوء استخدامهم، منذ قرون بدأت في العمل ولم تكن بذلك السوء المتهمة به، وعزوف الناس عن المعابد لا سبب له غير رؤيتهم جشع

الكهنة، والسيطرة على عقول الناس وممتلكاتهم، الطعام يتعفن في مخازن المعابد والفقراء لا يجدون ما يسد جوع أطفالهم، وجدوا الإله موجود أيضًا خارج معابدكم فلا داعي للدفع لمن يستولي على قوت أبنائهم، نظر للملك الشاب وأضاف:

-مولاي. يوجد حل للأزمة غير تدمير الطاقة التي وهبنا الرب، وسخرها لنفعنا.

صرخ كبير الكهنة بحقد:

-الكارثة بسبب كفركم بالآلهة وتغيير صنيعتهم ومحاولة تطويع الطبيعة لكم، لا حل لها سوى بالعودة للطبيعة النقية، وتقديم القرابين للآلهة لترفع عنا البلاء ويعود الناس لعهدهم السابق وقوتهم العظيمة.

نظر الحكيم للملك الشاب فأومأ له بالرد، أجابه بهدوء:

-لم نكفر بالإله حينما استخدمنا الطاقة، إنما هي جزء من قوته وهبها لنا لتيسر أعمالنا، وتريح أجسادنا.

ذكَّره أن القرابين تصل إلى خزائن وبطون الكهنة، لا داعي لربطها بالإيمان ولا ربط الأمراض بغضب الإله، فإن الإله هو واهب الطاقة لننتفع بها.

احتقن وجه كبير الكهنة غضبًا وصرخ:

-هذه مؤامرة على معابد الآلهة، ولا نسمح بالتعدي على الكهنة، لن يتم اتخاذ أي قرارات بدوننا.

غضب الملك الشاب من ارتفاع صوت الكاهن، نهض ورفع يده بحزم، نظروا له بدهشة من تصرفه الغريب، ونظراته المشتعلة كاللهب، اعتادوا على سماحته وسعة صدره لم يعهدوه غضوب هكذا، وزاد ذهولهم حينما رأوا حراس القصر يحيطون بالكهنة، وقال:

- لن يشاركني أحد الرأي بعد الآن، سيسير الكل على خطاي، سأخرج بالبلاد من الأزمة بدون مساعدة أحد.

وأنهى كلامه بأمره إلى الحراس:

- أخرجوهم من القصر ولينصرف الحكماء إلا «بيداست».

انصرف الحراس وتركوا الحكيم «بيداست»، نظر للملك باحترام وقال:

-جلالة الملك نحن نعلم أنهم مخطؤون لكن لم يكن هناك داعي لمعاداتهم في هذا الوقت، الجيش ضعف، ولديهم المال لشراء الناس، غير أنهم معهم جيشهم الخاص.

نظر له الملك نظرة تحمل بقية من الغضب، وقال:

-لن يعارض أحد قراراتي.

التفت له الكاهن «خياتوت» وقال:

-يا مولاي بذلك ستكون في الطريق الخاطئ، على الرغم من استجابة الشعب لقراركم بحرية تقديم القرابين للمعابد، لكنهم مرتبطين بها وبالكهنة، وقرارك هذا يجعلهم يستغلون الفرصة ويدبرون المكائد ضد القصر.

أجابه الملك وهو يجلس على عرشه:

-انتهى الأمر، كان يجب حدوث ذلك منذ زمن بعيد، ورفع أيديهم عن قرارات القصر.

صمت برهة، ثم أردف:

-الآن دعونا منهم يجب تكوين مجلس استشاري من الحكماء والكهنة للمملكة، لا يسعون إلا لمصلحة المملكة.

صمت قليلًا ثم نظر للحكيم وسأله:

-كيف ستحل مشكلة الأمراض يا «بيداست»؟

ازدرد ريقه وقال:

-مولاي لقد توصل أحد الحكماء الشباب إلى عقار يبرئ المرضى.

وبدأ يفصل له كيف جربه على بعض المرضى وأنه اثبت نجاحه على ثلاثة مرضى من الخمسة الذين تناولوا ذلك العقار.

قال الملك بوجه جامد:

-هذا جيد لكني أريد نتائج أفضل، صنِّعوا هذا العقار بكميات كبيرة تكفي المرضى في أسرع وقت.

حنى الحكيم رأسه وصمت، فقال الملك متسائلًا:

-لماذا تصمت؟ أنا أريد أن أسمع أخبرني بكل ما يتعلق بذلك العقار.

أجابه الحكيم بصوت متقطع:

-للأسف يا مولاي صناعة الجرعات الخمس التي استخدمها تطلبت ثلاثة أشهر وبعض المواد التي استعملها نادرة في مملكتنا.

نهض من على العرش فانحنى الحكيم والكاهن، وقال:

-وفروا كل شيء للقضاء على ذلك المرض اللعين والسيطرة على أسبابه، وكل ما تحتاجه لتوفير هذا العلاج أخبرني به...

قطع كلامهم دخول الحاجب وعلى وجهه علامات القلق، قال:

-مولاي الملك، جنود المعابد توحدوا وهم في طريقهم الآن ليهاجموا القصر، جنودهم أكثر من حراس القصر.

تداخلت الانفعالات على وجهه، ما بين الغضب والقلق ولوم النفس، هز رأسه يطرد عنها الهواجس التي هاجمتها، ونظر للحكيم «خياتوت» الذي خيم على وجهه الحزن وقال له بغضب:

-أعلم أنك تقول إنه خطأي، هذا صحيح، لم أقدر توحد المعابد المتناحرة في أحد الأيام ضدي، سأصدهم وأجعلهم يدفعون ثمن خروجهم على ملك مصر ابن الإله ووريث حكمه.

أجابه الحكيم:

-للأسف يا مولاي قوة حراس القصر لن تكفي لصدهم، استدعاء الجيش من سكناته في ظل الضعف الملم به سيتأخر، وستكون الحرب دامية، سيسقط الكثير من جنود القصر، يمكنك حل ذلك الأمر بمفاوضتهم

والإنصات لمطالبهم حتى عودة الجيش لمساندتك والسيطرة عليهم واحدً تلو الآخر.

نظر له الملك بغضب وأشار للحارس فناوله سيفه، وهو يقول:

-إن خضعت لهم الآن سيضعف مقامي أمام الشعب، ستهتز ثقتهم بي.

استأذن الحكيم «بيداست» ليتكلم فقال:

-مولاي. الشعب يثق بك، لن تقل ثقته حينما يعلم أنك آثرت حفظ دماء الجند، أما الدخول في حرب بحفنة من الجند مقابل جيش المعابد سير نحو الموت.

دخل الحاجب يطلب الإذن لدخول قائد حراس القصر، فأشار له الملك فسمح له بالدخول، وبعدما حيا الملك قال بلهجة حازمة:

-مولاي الجند في مواقعهم المخصصة وتم اغلاق أبواب القصر والرماة على الأسوار في أتم الاستعداد، لكن يا مولاي...

صمت قليلًا صاح الملك بانفعال كبير:

-تكلم بكل ما عندك لكن ماذا؟

تردد قليلًا ثم قال:

-عددهم كبير وعتادهم أيضًا، أرسلت لأقرب قادة الجيش ليأتي بجنده لكن لا وقت لدينا حتى يأتي الجيش.

جلس الملك وتنهد بقلق ثم قال:

-يبدو أن لديك خطة أخبرنا بها.

أجابه:

-نعم يا مولاي، نكسب بعض الوقت حتى يأتي قائد الجيش بجنده فنحاصرهم أمام القصر ونأمرهم بالاستسلام.

قال الملك:

-لقد أجمعتم أن التفاوض معهم هو الحل، حسنا أرسل رسولًا للكهنة ليقدموا مطالبهم.

ذهب القائد وأرسل للكهنة، وتم دعوتهم لساحة القصر وجندهم خارج القصر متأهبين للقتال، خرج الملك الشاب ليلقى الكهنة وهو يتقلد سيفه وعلامات من الغضب تغطى وجهه، وبين جموع الكهنة لمح وجهًا يعرفه جيدًا، إنه أخوه الأصغر غير الشقيق ذو العشرين ربيعًا، لم يستغرق وقتًا حتى ايقن أنها النهاية، وأنه وقع في فخ لا خروج منه؛ نظر حوله لجنود القصر لكنه لمح على أحد الدرجات دماء، شعر بانقباض صدره، وأكمل سيره حتى وقف في شرفة القصر، الأبواق تنفخ، رفع يده فصمتت الأبواق، وقع بصره على بقع دماء متفرقة في ساحة القصر، وحينما نظر عن يساره وجد جنود القصر مقيدي الأيدي على الأرض، وقبل أن يلتفت لقائد حراس القصر شعر بشيء ينغرس في ظهره، كان ألمه يخترق الضلوع، التفت لمن طعنه فوجد من وكله بحمايته، إنه قائد الحراس بذاته، بيده الخنجر الذهبي الذي أهداه إياه حينما تولى الحكم، شعر بالألم يزداد،

امتزج ألم الخنجر مع ألم الخيانة، لم يرى أحد من الحراس يستل سيفه ليزود عنه استبدلوهم، دبروا للأمر بدقة، استل الحاجب سيفه لكن طعناتهم سبقته، فسقط بالقرب منه وهو يتمتم «سامحني يا مولاي»، البقية يتابعون بصمت، أراد أن يسحب خنجره لكن عاجله القائد بطعنة في قلبه وترك الخنجر في جسده، فخر راكعًا على ركبتيه وهو يرى أخيه يتقدم منه بوجه متشح بالحزن، فاقترب منه وهمس في أذنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

-سامحني يا أخي علينا أن نقدم القرابين من أذكى الدماء ليستمر مُلكنا.

حرك الملك شفتيه بصعوبة وقال بوهن:

-لقد ارتكبت خطأ فادحًا عليك أن تواجه لعنة الدم.

وضع أخيه يده اليسرى على كتفه وسحب باليمنى الخنجر فخر الملك على الأرض وسال الدم من فمه ولفظ آخر أنفاسه بيد الخيانة.

***

الوضع سيء للغاية، الناس لا يخرجون من المنازل، الأبواب موصدة على الجميع، إلا القليل ممن خلت خزائنه من الغذاء، فتسلل خلسة بحثًا عما يسد به جوع أفراد أسرته، لم يبقى في شوارع المملكة إلا الحراس أمام قصر الملك والمعابد، ولا تُسمع إلا صوت الأطفال يبكون يريدون الخروج للهو، الوجوه شاخصة تنظر في تساؤل لبعضها بعضًا، لا أحد يعلم ما الذي حدث؟!

مات الملك، فحلت المصائب تباعًا، انطفأت طاقة الأهرامات، توقف هدير المعدات، وهذا لم يحدث منذ مئات السنين، لم يحدث منذ بداية عمل

الطاقة، لم يخبر الأجداد أحفادهم عن شيء مماثل من قبل، توقفت الحركة كأنه الموت يصيب ما يلقاه في طريقه، ازدادت شراسة المرض المجهول، وخيم اليأس على الناس، ارتفعت دعوات المعابد للناس أن يعودوا لأعمالهم بلا مجيب.

بين أرجاء مكتبة المعبد الكبير بطيبة وقف أحد الحكماء الشباب حليق الرأس مجدول الذقن بالزيّ التقليدي لعلماء المملكة -تنورة بيضاء ملفوفة حول خصره يثبتها حزام ذهبي، وطوق ذهبي فوق كتفه وحول رقبته، وأساور تحيط بعضلات ذراعه- غاضبًا يصيح بقوة:

-أنتم السبب، من أوصلنا لذلك، أخبرناكم أن إيقاف الطاقة سيضيّع ما وصلنا له من حضارة، أفنى الآباء والأجداد أعمارهم في بنائها والحفاظ عليها...

أجابه أحد الكهنة برأس أصلع وتجاعيد رسمها الزمن على وجهه:

-وماذا كنّا سنفعل أردنا تخليص الناس من الأمراض المجهولة التي تسببها طاقتكم المشؤومة.

نهض شاب آخر -نحيل البنية طويل القامة، تطفو على وجهه علامات الهدوء إلا أنهم أخرجوه عن هدوئه- صاح بغضب:

-الطاقة لم تكن مشؤومة مثلكم، أخبركم «بيداست» بما نملك من حلول، ونستطيع أن نصنع الدواء الذي يحمي الإقليم بأكمله من ذلك المرض، ماذا فعلتم؟ أوقفتم الطاقة بجهلكم، هل أوقفتم المرض؟.

صاح الكاهن الأكبر بغضب:

-لا تحدثني عن ذلك الكافر الهارب هو و«خياتوت» ولم يعلم أحد إلى أين ذهبا.

أجابه الشاب بغضب دفين:

-جميعنا نعلم أنه آخر مكان ذهبا إليه هو قصر الملك، ذات اليوم مات الملك دون ذكر لمرض، جميعنا نعلم أن ما حدث مرتبط بخروج جند المعابد تجاه القصر.

قال آخر:

-لا شك لدينا أن الملك قتل غدرًا.

وقف أحد الكهنة وصاح فيهم بغضب:

-تأدب يا فتى. لا وقت لكلام يثير الفتن الآن، انتهى الأمر فلا تشغلونا بالتأنيب وإلقاء اللوم، نحن فعلنا ما علينا لحماية المملكة من كفركم وعبثكم مع الآلهة، فعاقبتنا بوباء مجهول...

صمت قليلًا ودار حول الشاب ثم أردف:

-أنا أخبركم بسر يشفي صدوركم، لقد مات «بيداست» و«خياتوت» مع الملك الكافر بيد أخيه ليطهر الأسرة من كفرهم وإفسادهم شؤون المملكة.

تبادل الشباب النظرات بهلع وحزن، حتى الملك الجديد متورط في الكارثة، أردف الكاهن:

-هناك أمر آخر، يجب أن يختفي ذلك السر هنا.

سحب خنجره مع كلمته الأخيرة وغرزه في ظهر الشاب بغدر، فتبعه البقية فسرقوا حياة الشباب الغاضب من أجل المملكة، تمكن أحدهم من تفادي ضربة الخنجر فصدها وعاجل ضاربها بخنجره في حنجرته وهرب بهلع...

تصدى له بعض الجنود فاستطاع أن يهرب منهم، واختبأ في أحد المنازل، حتى فقدوا أثره، ثم تسلل في الشوارع الجانبية وهو يحدث نفسه لاهثًا:

-اللعنة عليكم، اللعنة على خيانتكم، آه رفاقي آه.

ترك المدينة خلف ظهره، وركض حتى وجد حصانًا أسودًا لأحد الفلاحيين، على أطراف المدينة، اقترب منه ببطء وهو يحاول أن يضبط أنفاسه المتسارعة حتى لا ينفر منه، فما أن وصله حتى أخذ برأسه ومسح عليها، ولما شعر بألفته فك قيده، وضع أحد الرجال يده على كتفه وصاح بغضب:

-أيها السارق.

كاد قلب الشاب أن يتوقف من الهلع، وهو يسحب خنجره تمالك أنفاسه لما وجده من الفلاحين فقال:

-أعطني الحصان وسأعطيك كيسًا من الذهب.

شعر الرجل أنها صفقة رابحة، فوافق، تحسس الشاب حزامه فلم يجد كيس الذهب، علم أنه أضاعه وهو يركض، قال الرجل:

-لص ومحتال أيضًا، لا تملك شيئًا من الذهب.

أجابه الشاب بحزن وهو يفك طوقًا ذهبيًّا من على ذراعه:

-أعطيك هذا أثمن من كيس الذهب.

قلبه الرجل بين يده وأومأ قائلًا وهو ينظر لقطرات من الدم على تنورته البيضاء:

-اتفقنا، أخبرني من قتلت؟

امتطى الحصان وهو يقول:

-الأمر شديد التعقيد لكنك ستعلم فليس لدي الوقت الآن...

لكز الحصان وانطلق به تاركًا المدينة وراء ظهره واتجه للشمال حيث الملاذ ومقر نجاته الأخير...

ولما شعر أنه ابتعد بقدر كاف، أوقف الحصان بالقرب من ضفة النهر شرب وجلس يأخذ قسطًا من الراحة، فأبت الأحداث القريبة تركه بلا أنيس، تذكر وصية معلمه «بيداست» حماية العلوم التي وصلتهم بعيدة عن أيدي المعابد.

حدث نفسه بحزن:

-يعلمون أنهم سَيُفْضَحون ولو لم يعدمهم الملك سيقتلهم الشعب فضحوا برفاقي، لا أدري لم هربت؟ لا حاجة لي بالحياة ليتني مت معهم.

صاح فيه صوت الأمل من داخله:

-يجب إنقاذ ما عملتم عليه طوال الأيام الماضية لا تدع دم رفاقك يذهب هباءً.

وعلم مهمته فامتطى الحصان ليكمل طريقه خلال ثلاثة أيام حتى وصل لهرم «باكا»، وصعد لأعلاه وفتح باب نحاسي كبير وهبط ثلاث درجات خلف الباب، ثم أغلق الباب بإحكام وكان قلب الهرم ما هو إلا عبارة عن آلة مجهزة للهرب، إلى أين؟ لا يدري، تذكر كلام معلمه أنها ستجد طريقها بكل ما فيها من مخطوطات تحمي العلوم، يوجد بداخلها بلورة تشع أضواء وتعكس صورة لمحيط الهرم، فجلس الشاب يفكر فيما هو مقبل عليه، ألقى بجسده على أحد المقاعد حتى يسترد بعضًا من عافيته، ثم قام بتشغيل الآلة بدأ أزيز المحرك، لمح على البلورة اقتراب جنود من موقعه فأعطى الآلة الأمر بالإقلاع زاد الأزيز مع اهتزاز الآلة، رأى على الصورة التي تعكسها البلورة الدخان يحيط بالهرم بكثافة فشد الجنود اللجام على أحصنتهم وألجمتهم الدهشة، تساءلوا:

-هل الهرم مجرد آلة؟ ألم يكن مصدر للطاقة مثل البقية؟ كيف نجا من العاصفة؟

نظر الشاب إليهم في البلورة ونظر للهرم فوجد الدخان ينقشع ببطء لم يبقى من الهرم إلا القاعدة واختفت الآلة بأكملها، شعر بالقلق لتركه وطنه المعلوم وذهابه في طريق مجهول، اختفت الآلة ولا جديد غير اختفاء أشعة البلورة لم يعد يعلم شيء عما يحيط بآلته، وبعد ساعات من استلقائه على مقعده يتساءل عن مصيره وإلى أين يذهب؟ بكى كثيرًا على رفاقٍ راحوا

ضحية الخيانة والغدر، لم يكونوا يفكرون إلا في سبيل يعيدون به مجد أسلافهم الضائع، الآن هو في أشد الحاجة إليهم ليرشدوه للطريق الذي يتبعه، بل يحتاجهم ليواسوه في حزنه عليهم، أفاق الشاب على صوت تنبيه فنظر للبلورة فوجدها تعرض صورة ظلام شديد، لا يعلم ما الذي يحدث!

هل يعطي الآلة الأمر لتتوقف؟ لا يعرف ماذا يحدث إن توقفت؟ لم يكن قد تجهز ليعمل عليها منفردًا، ظل الظلام يقترب بقوة، شعر بالطنين المزعج في أذنه، لم يعد يحتمله فسقط على مقعده وهو يضغط على رأسه بقوة، وبدأ الوعي ينساب منه وقبل أن يفقد الوعي كليًّا رآه! لقد رآه يتحكم في أجهزة الآلة، وظل الدم يسيل من أنفه وأذنه، وهو يحرك شفتيه بوهن متساءل: «تحوت؟» معلمي «تحوت؟»، دنا منه وتردد الصوت في عقله: «لا تخف ستعود روحك معي يومًا ما».

فتح «عصام» عينيه وانتفض واقفا يتحسس المكان حوله وصوت أنفاسه المتسارعة وضربات قلبه الهائجة يخبرانه أنه كابوس غريب، تساءل «هل كان كابوس أم ذكريات العالم الأول؟».

مر يومان وهما يجهزان حقائبهما والكابوس لا يتركه، لا يفارق خياله، «هاجر» ترى الشرود وقسمات الحزن على وجهه، وكلما سألته اصطنع الابتسامة وأجابها: «لا شيء»

استقلوا سيارة والدهم وذهبوا إلى مدينة الأقصر حيث تنتظرهم «شيماء»، ليذهبوا معًا إلى السفينة نفرتيتي، التي ستبحر بهم إلى الشمال حيث عروس البحر المتوسط، وحينما وصلوا وهم يتبادلون بعض المواقف

الطريفة بينهم ويضحكون، طلب منهم أمن السفينة تفتيش الحقائب فتش الحقائب الكبيرة ثم طلب حقيبة الظهر التي يرتديها «عصام»، فأعطاها له بقلق، وهو يقول له:

-وضعنا الحقائب على الجهاز لما تتم إعادة التفتيش مرة أخرى؟

ابتسم الضابط وقال له:

-أوامر ننفذها.

نظر الضابط بداخل الحقيبة وأخرج المخطوطة التي كتبت بالهيروغليفية، وفغر فاهه وجحظت عيناه وسأل «عصام»:

-ما هذا؟

نظر «عصام» لها وجد أنها تغير شكلها فقال بابتسامة:

-إنها مجلة أوروبية قديمة عن الحضارة الفرعونية ماذا بها.

أعاد الضابط النظر إليها فبدت كأنها مجلة عليها صورًا وكتابات فرعونية، شعر بالإحراج واعتذر قائلًا:

-أنا في الخدمة منذ البارحة والمناوب معي لم يأتي اليوم بسبب ظروف طارئة وأنت تعلم قلة النوم تؤدي إلى الهلاوس أحيانًا.

أخذ «عصام» المخطوطة ووضعها في الحقيبة، ثم ابتسم وقال:

-لا عليك، لا داعي للاعتذار هذا عملك.

دخلوا السفينة ودلهم موظف الاستقبال على غرفهم التي حجزها لهم عصام من قبل، غرفة مزدوجة ل«هاجر» و«شيماء» وغرفة فردية

ل«عصام»، وضعوا الحقائب وخرجوا ليجلسوا على السطح يشاهدوا غروب الشمس مع بعض الشاي الساخن، أبحرت السفينة بهم في تيار النيل الساحر وظلام الليل الهادئ.

قالت «شيماء» وهي تنظر للمعالم الأثرية على ضفة النيل:

-أجرى الله النيل ليهب لنا الحياة الآن وفي القدم، تياره الجارف الذي حمل أحجار الأهرام العظيمة، شاهد على أسرار الحضارة، التي اختفت كلوح ثلج ذاب وتبخر.

همس بهدوء:

-صدقتِ لوح ثلج ذاب وتبخر، سيأتي يوم ويهبط على الأرض كحبات المطر فتهتز وتربوا وتصير جنانًا وحدائق.

ضحكت «هاجر» وقالت:

-هل تحلم بفك الرموز ومعرفة الأسرار المعقدة؟

أردف باسمًا:

-نعم فإن لم أنعم بتحقيق أحلامي يكفيني الوصول لها في عالم الخيال.

صمت قليلا ثم سألها بمكر:

-ماذا تفعلي إن علمتِ بأن أرواح المومياوات الراقدة قادرة على العودة إلى الحياة وحلولها في أجساد أشخاص نتعامل معهم كل يوم؟

اصفر وجههما وقالتا معًا:

-كفى يا «عصام» نحن في رحلة، لا داعي لقصصك المرعبة الآن.

ضحك وقال:

-حسنًا، لكنه سيكون شيئًا مثيرًا وليس مرعبًا كما تظنون.

ومع كلمته الأخيرة قُطع التيار الكهربي عن السفينة فصرخت «هاجر» و«شيماء»، ضحك وهو يمسك يد «هاجر»:

-لا تقلقا لن يعودوا الآن.

عاد التيار سريعًا، فقام «عصام» وقال:

-سأذهب للغرفة لأجلب هاتفي لا تذهبا حتى آتي.

في الغرفة تشكل له معلمه فحنى رأسه، وقال:

-انتظرتك كثيرا لدي الكثير من الأسئلة والأخبار.

دوى صوته في عقل «عصام»:

-يبدو أنك وجدت البداية.

فأومأ برأسه وأجابه:

-نعم وجدت البداية وحصلت على قدر من المعلومات، ورأيت شيئًا غريبًا.

أجابه بوجه تملؤه الحكمة:

-لا تقلق ولا تخبر أحدًا بما ترى، كل ما تسعى لمعرفته سيأتيك في وقته.

وقف أمامه وقال:

-تذكرت أن كل الأسرار احترقت في العصور المتأخرة في المملكة، بعضها بسبب الحروب والآخر بسبب الحقد، لكن المخطوطة تأمرني بالذهاب إلى الشمال حيث موقع المكتبة القديمة، أظن أن هناك...

قاطعه بإشارة إلى السرير نظر فوجد ثلاث مخطوطات جديدة ابتسم وقال:

-سأفعل كل ما بوسعي وإن كان المستحيل. أما...

قاطعه بهزة من رأسه وتردد الصوت في عقله:

-لا تعجل يا بني كلٌ في وقته، الآن سأذهب ولا تفتح المخطوطات إلا بتعامد القمر فوق السفينة.

أحنى عصام رأسه فاختفى مع رنين الهاتف، «هاجر» تتصل به ذهب إليها بعدما أخفى المخطوطات.

-٦-

صوت أوزوريس

السفينة تشق المياه بين ضفتي النهر العظيم، ترى عن يمينك قرى الصعيد العتيقة، عجيبة التكوين تقع بين ماء وصحراء، لين وجفاء، الماء غربها، هضاب البحر الأحمر شرقها، العيون تتابع سير السفينة تلمع بنور القمر، بعشق النيل، تلتف يسارًا تشعر بهيبة وغموض البر الغربي، مكان مهيب مكتظ بالمعابد وقبور القدماء، تغير كثيرًا عن الماضي لكنه يلقي على القلوب هيبة ومسحة من رعب خفي.

رجع «عصام» إلى سطح السفينة حيث تجلس «هاجر» و«شيماء»، والابتسامة تعلو وجهيهما، يبدو أنهما اندمجتا في عبير النهر وسحره، نظر إليهما وابتسم قائلًا:

-اعتذر عن التأخير، أخبروني ماذا سنتناول على العشاء؟

طلبوا طعامهم وبعدما أنهوه جلسوا يتسامرون، عيناه تتابعان القمر من آن لآخر، اقترب تعامده على سطح السفينة فرأى زيادة توهج الهالة الضوئية حوله، وشيء في داخله يخبره أن الوقت قد آن، فنظر إلى «هاجر» و«شيماء» وقال لهما:

-سأذهب للنوم لأستيقظ باكرًا، أحب رؤية شروق الشمس من بدايته.

أضافت «شيماء» وهي تنهض:

-وأنا أيضًا أشعر ببعض النعاس، هيا يا «هاجر».

تركهما عائدًا إلى غرفته، وقف إلى الجانب الزجاجي ونظر لانعكاس صورة القمر على الماء وانعكاس أشعته على جدران الغرفة فبدا التلألؤ كأن النقوش الفرعونية تتحرك وتشكل رسائل هيروغليفية، رأى المخطوطات تنسحب من تحت الوسادة، شعر برهبة لكن سرعان ما تبددت، أضاءت رموز الأولى بلون ذهبي ناصع، حلقت في الهواء وامتزجت مع النقوش على الجدار، تشكلت كلمات الرسالة الأولى، قرأ بصوت هامس:

«عندما تتعامد من السماء أشعة «سمدت» الفضية على صفحة «إل» في أرض الإله المعظم، ستبدأ مراسم إظهار الحقائق ورد المظالم، وتعود الحكمة المنسية، وترتفع رايات الحضارة تنير قلب الصحراء بين طيبة و«كانوبوس»، ترسم الطريق المنير للأحفاد، وتعيد فتح أبواب النعيم لمن يسعى للوصول للحكمة؛ أنني المختار من أرض الإله المعظم لتنفيذ المهمة المقدسة، في أرض «كانوبوس»، أكسر قيود المخطوطات المنسية، أخرجها من الصندوق المقدس، أنفض عنها غبار الزمان، أخلص الأرواح المعلقة لأعيد الحكمة للأرض لتنعم بالأمان، فليهب لي الإله يده لتساعدني، وحكمته لترشدني...» يردد الكلمات، صدى صوته في الغرفة كأنه آلاف الأصوات، قطعت الترانيم، طرقات فزعة على الباب، أصوات وجلبة بالخارج، اختفت الرموز والمخطوطات، فتح الباب بقلق فوجد «هاجر» خائفة تنتفض من

الفزع وأنفاسها متسارعة فألقت نفسها بين ذراعيه، فمسح على رأسها وهو يسألها في هلع:

-ماذا حدث؟ ما بك؟

«شيماء» واقفة على الباب الخوف على وجهها، لكنها تمالكت نفسها وتحدثت:

-أصوات غريبة، هزّات قوية أصابت السفينة.

نظر إليها بدهشة:

-أصوات وهزات؟

تحدثت «هاجر» بأنفاس مضطربة:

-أصوات غريبة تتكلم، ليست بشرية...

أدرك أن الجميع شعر وسمع إلا هو سمع وفهم الأصوات؛ هدأ الوضع قليلًا وأخذهم إلى سطح السفينة وجلسوا على إحدى الطاولات، وأخذ يهدئ أخته ويلاطفها، الخوف والهلع على وجوه الجميع، ازدحمت طاولات السطح بالركاب والخوف مسيطر على الجميع، لحظات صمت على طاولة «عصام» قطعها متسائلًا:

-لا داعي لكل هذا الخوف، سنعرف مصدر الصوت قريبًا.

سأله شخص خلفه لا يعرفه:

-ألست خائفًا؟

غضب «عصام» لتدخل هذا الغريب فأجابه:

-لا لست خائفًا. ما شأنك أنت؟

فشعر الغريب ببعض الإحراج فاعتذر وانسحب بهدوء، مسكت «هاجر» يده برفق وهمست:

-اهدأ، يتساءل عما يطمئنك لهذه الدرجة في هذا الوضع الغامض، لا داعي للغضب.

سألته «شيماء» بدهشة:

-ماذا كنت تفعل أثناء ما حدث؟

ابتسم «عصام» وقال:

-نائم.

قالت بدهشة:

-أغلب من على السفينة كانوا نيام أيقظتهم الأصوات.

نظر إليها وابتسم قائلًا:

-حظي الرائع نومي عميق لا أشعر بشيء.

ابتسمت بغير اقتناع، ضحكت «هاجر» بسخرية:

-بالفعل نومه ليس نومًا إنما غيبوبة.

ابتسموا ليختفي نصف الخوف عن وجوههم، ظهور قبطان السفينة وطلب من الجميع أن يستمع إليه فقال بابتسامة روتينية:

-رحلة سعيدة أولًا، نلتمس من حضراتكم العذر لما حدث من هزات في السفينة

وبدأ يبرره بتعطل المحرك بشكل مفاجئ، حاول الطاقم إعادة تشغيلها سريعًا، نتجت عنها الهزات، سبب الأصوات معبد أبيدوس، إدارة المنطقة تجهز لإقامة عرض محاكاة لطقوس الكهنة في المعبد، فاستخدموا مكبرات الصوت، ولخطأ ما كانت مرتفعة للغاية، كرر الاعتذار ورجاهم أن يتقبلوا اعتذاره، أشار للعاملين فبدأوا بتوزيع بعض الحلويات والمشروبات، طلبًا لرضا الركاب، نظر «عصام» إلى «هاجر» وضم يدها برفق وابتسم وفكره معلق بالطقس الذي انقطع بشكل غريب.

جلسوا ينظرون إلى تبدل علامات الهلع إلى ابتسامات ثم ضحكات ووجوه راضية، وبينما يتناول «عصام» قطعة حلوى وضعها النادل أمامه وقع بصره على الغريب الذي غضب عليه، اقترب منه وبادره الحديث:

-أُدْعى «عصام» اعذرني لم أقصد إحراجك وتحدثت معك بطريقة غير مهذبة.

ابتسم الغريب وقال:

-مرحبا بك، أنا «طارق»، لا عليك الكل هنا في حالة هلع وأنا أُقَدر الموقف لا تقلق.

لم يشعر بارتياح من رده على الرغم من هدوئه، توقع أن يرد له الإحراج بشكل مماثل لكنه كان حليمًا، ابتسامته تخفي الكثير خلفها، شعر بانقباض قلبه دون علم بسببها، صافحه وعاد إلى طاولته.

مرت اللحظات ثقيلة وفكره معلق بمهمته المعلقة في مهدها، جميع المسافرين على سطح السفينة في قلق من دخول غرفهم مرة أخرى، أقنع أخته وصديقتها بالذهاب للنوم ونسيان ما حدث، عاد إلى غرفته وما أن هدأ الوضع حوله وعم الهدوء على السفينة، أزاح الستار عن النافذة الزجاجية بحذر، ليتمم مهمته، سقط ضوء القمر على المرآة خلفه، ظهر معلمه انحنى برأسه، تردد الصوت في عقله بهدوء:

-لا تقلق أنا أعلم كل شيء، وأعرف كل ما يحدث حولك، لكن الآن هناك أمر هام.

تحفز ليتلقى الأمر، أردف معلمه:

-من الآن لن تكون وحيدًا، سيرافقك روحان مهيأتان للمهمة.

شعر بالقلق، على الرغم من جماد وجهه إلا أنه شعر بابتسامته، أردف:

-لا تحزن، نعلم جدارتك، ونؤمن أنك ستكون سعيدًا حينما تعرف من هما.

طرقات على الباب، نظر لمعلمه متسائلًا، أذن له ليفتح الباب وأوحى له:

-لا تخف؟ افتح الباب.

فتح الباب بحذر رمق الطارق بنظرات دهشة، وهمس:

-هذا غير معقول!

-٧-

طيف إيزيس

عادت «هاجر» و«شيماء» إلى غرفتهما ويداهما مطبقتان على بعضهما طلبًا للأمان، وضعت «شيماء» إصبعها على مفتاح الإضاءة بعدما أغلقت الباب، فشعرت بالتيار الكهربي يمر من المفتاح عبر جسدها، شعرت بروحها تنسحب منها، نفذ التيار لجسد رفيقتها التي حاولت جذبها بعيدًا عن مصدر الكهرباء بلا جدوى، سقطتا على الأرض انسحب منهما الوعي، وبعد وقت لم تقدراه شهقت «شيماء» كالغريق العائد للحياة، تبعتها «هاجر»، فشلت محاولتهما النهوض، تفقدان السيطرة على أعصابهما، الظلمات أصابتهما بدوار، استسلمتا لجذب الأرض لهما، واشتعل تفكيرهما، شيء ما تغير في حياتهما، لم تدركاه بعد.

رغم الظلام استطاعت «هاجر» الإمساك بيد رفيقتها، شعرتا بتحول ملمس السجادة لملمس الأحجار الباردة، لم تدركا ما حدث.

الظلام ينقشع ببطء، الغرفة ليست هي! شعرتا بهلع وأطبقتا أيديهما بقوة، قلباهما يرتجفان وجسداهما، ينقشع الظلام كدخان، يكشف عن غرفة واسعة الجزء السفلي منها أحجار متراصة بدقة، والعلوي مزين بنقوش هيروغليفية، تبادلتا النظرات الخائفة، وهما يتفحصان الغرفة، لاحظت «شيماء» أنها فهمت النقوش، رمقت «هاجر» بدهشة سألتها بصوت مرتجف:

-«شيماء» كأنك تفهمينها؟

أومأت وترقرقت عيونهم بالدمع، شيء ما سيطر على حواسهما، جعلتهما ترددا الكلمات المنقوشة على الجدار، ظهرت في منتصف الغرفة امرأة فاتنة بزي ملكات مصر القديمة، همست «شيماء» برهبة جعلت جسد رفيقتها يقشعر:

-إيزيس؟!

تقدمت منهما بخطوات واثقة، كل خطوة تزيد الرجفة في قلبيهما، حاولتا الهرب، إلى أين؟ لا تدريان؛ أقدامهما أثقل من الجبال، لا مفر، وضعت إيزيس يدها اليمنى على رأس «شيماء» واليسرى على رأس «هاجر»، الفزع على وجهيهما يزداد، تجمدت الدماء في عروقهما، تمتمت بصوت ملائكي ترنيمة، وصلت لقلبيهما مباشرةً جثتا على ركبهما في خشوع، كلماتها تذيب جليد الخوف، رفعت يديها وأنهت طقسها، أمرتهما بصوت حاني بالنهوض والاستعداد للمهمة المقدسة.

تبادلتا النظرات لا تصدقان ما حدث، الظلام يحتل الغرفة، تمتمت «هاجر»:

-هل كان مجرد حلم؟

أجابتها «شيماء» بدهشة:

-شعرتِ بما شعرتُ به، لم يكن حلم.

تركتا الضوء مغلق وذهبت «هاجر» لتفتح الستار، فانعكس ضوء القمر على الجدران وغزت الغرفة رموز مضيئة تشكلت في حروف رسالة،

نظرتا لبعضهما برهبة، ونظرتا للملابس تبدلت لمثل زي «إيزيس» قالتا في نفس اللحظة:

-لقد كان كل شيء واقعيًّا.

قرأتا الرسالة، قامتا بالطقوس كما نصت الرسالة «فتح الطريق أمام ضوء القمر، وتجلسان القرفصاء وتبسطان أيديكما للأعلى طلبًا للإلهام المنبعث من وجه القمر، وذلك في صمت لثلاث دقائق متصلة».

مرت الدقائق الثلاث رددتا ترنيمة اتحاد الروح مع الجسد بصوت هامس، رغم همسهما تردد صداه في كل مكان، يدعو الأرواح بالعودة والاتحاد:

«هلا أنت الإله الجالب. هلا أنت الإله الساعي الذي سكنت في قاعتك. أيها الإله العظيم لتضمن أن تأتي روحي إليّ من حيثما كانت. إن كانت متلكئة فلتدعها تُحضر لي من المكان الذي تكون فيه، لأنك سوف تجد «عين حورس» واقفة بجانبك مثلما تفعل لتلك الكائنات التي تتماثل لـ«أوزيريس» والتي لن ترقد أبدًا في الموت.

دعني أمتلك روحي ونفسي ودعني أظفر بذلك في أي موضع حيثما كان. راقب أيا حارس السماء المقدس روحي حيثما تكون. إن كانت متلكئة فلتجعلها تنظر إلى جسدي لأنك سوف تجد «عين حورس» واقفة بجانبك مثلما تفعل لتلك الكائنات التي تتماثل لـ«أوزيريس».

علامات القلق والريبة تبخرت من على قلبيهما، مع لفحات من نسيم النيل على جبهتيهما المتعرقتين أعادتهما لوعيهما المسلوب، عاد بالعلم والحكمة، تبادلتا النظر بابتسامة ثقة، تنهدتا بارتياح، همست «شيماء»:

-الآن نفقه ما يدور حولنا.

أومأت «هاجر» ونهضت قائلة:

-هيا لنذهب لنتمم الطقوس.

خرجتا بالملابس المصرية القديمة في منظر مهيب، كأنهما ملكتين من حكام طيبة، كل من يراهما يسحر بهما، وقفتا أمام الباب، طرقت «هاجر» انتظرت حتى فتح «عصام» الباب رمقهما بدهشة وقال بصوت هامس كأنه يحدث نفسه:

-هذا غير معقول!

***

دخلتا الغرفة، انحنتا لـ«تحوت»، نظر إليهما وأشار لهما بالاقتراب، علامات الدهشة على وجه «عصام»، قال لمعلمه:

-اعذرني لكني لم أفهم شيئًا!

أجابه:

-وجب قدوم أحدهم لمساعدتك، من حسن الحظ أن روحا أختك وحبيبتك وجدتا روحين قريبتين من روح «عصام» تشابهت الأرواح الجديدة مع أرواح الأجساد التي حلت بها.

نظر لهما عصام بشاعر مختلطة، أردف «تحوت»:

-لا تقلق أثبتتا جدارتهما.

ابتسم وهو يتذكر من رآهما في أحلامه الصغيرة تركض بجواره في المعبد، ومن كانت تنادي عليهما، بدا على وجهه الاستيعاب، فقال:

-أعلم مدى التقارب بين الأرواح الثلاثة كما أعلم التقارب بين الأجساد الثلاثة.

نظر ل«هاجر» و«شيماء» وابتسم:

-أشكر الإله لوجودكما معي.

أشار لهم المعلم أن يستكملوا مهمتهم، خفت ضوء الغرفة، تسللت إليها أشعة القمر المنعكسة من على صفحة الماء، فتتلألأت على الجدار، وحلقت رموز المخطوطات، لتتشكل على الجدار الرسالة الثانية، بدأوا بالتمتمة وهم يعقدون أذرعهم على صدورهم:

«أتينا إليكم أهل طيبة مخلصين، نرفع عنكم تسلط الغرباء، نهدم قلاع الخوف في قلوبكم، نعيد سيادتكم على البلاد، لتنعم أرواح الأجداد في النعيم الدائم، نعيد علومكم من أيدي السارقين، ونحفظها من أيدي الطغاة العابثين، نذهب إلى الشمال لنخرج كنوزنا المدفونة في مستعمرات الرومان»

اختفى المعلم واختفت الرسالة وأضيئت الغرفة مرة أخرى، نظرت «شيماء» إلى «عصام» وقالت بلهفة:

-آن الأوان للعودة.

أومأت «هاجر» برأسها:

-الأمر واضح وسبب الرحلة إلى الشمال أصبح معلوم.

أجابها بابتسامة:

-نعم هذا سبب الرحلة.

قالت «شيماء» وهي تتناول مخطوطة من على السرير:

-المخطوطات لن تدلنا على مواقع الكنوز.

أضاف على كلماتها:

-ستدلنا على الباب الأول خلفه سنجد الطريق.

قالت «هاجر» بقلق:

-هل وصل للكنوز أحد قبلنا؟

اجابها:

-بالطبع لا، لأن الكنوز محاطة بهالة من الضوء تخيم على المدينة الشمالية حتى الآن.

أومأت «شيماء» برأسها وقالت:

-الهالة تنقشع بمجرد لمس الكنوز وتحريكها.

ظهرت علامات الاستيعاب على «هاجر» فقالت باسمة:

-إذن الكنوز آمنة حتى الآن.

أومأ «عصام» برأسه ثم نظر في ساعته وهمس:

-اذهبا لغرفتكما الآن الوقت تأخر على ميعاد نومكما.

ابتسمتا وخرجتا إلى غرفتهما، استلقى على سريره مع صوت إغلاق الباب خلفهما، فراح في نوم عميق.

عادت «هاجر» و«شيماء» إلى غرفتهما وفي قلبهما طمأنينة لم تشعرا بمثلها من قبل، دخلتا الغرفة وأغلقت «شيماء» الباب واستلقيتا على الفراش بملابسهما الملكية واستغرقتا في نوم عميق.

-٨-

فقد المخطوطات

تجري السفينة في تيار النيل الهادئ، أضواؤها الساطعة كمذنّب يضيئ السماء في ليل صافٍ، تلقي التحيّات على الضفتين من الصعيد للدلتا للإسكندرية، تتنفس نسيم الحقول وروائح الخضرة المنبعث رغم أنف الزحف العمراني، مرت الساعات حتى آخر شعاع للشمس من نهار اليوم الثاني، دخلت مياه البحر، تغيرت رائحة الحقول لرائحة اليود النفّاذ، ودعت التيار السلس، لتلقى الأمواج المتلاطمة، وتقاوم هزّاتها بثبات، الأمواج كافية لتخبر الركاب أنهم ودعوا سكينة النهر، «عصام» ورفيقتاه على السطح يتابعون، خروجها من المياه الهادئة إلى الأمواج الثائرة، ينظرون لتلاقي البحر مع السماء المرصعة بالسحب كأنهما متلاصقين، السحب تنبئ عن ليلة ماطرة ربما بعد دقائق أو ساعات قليلة، رست السفينة في الرصيف المعد لها، وبدأ منظم الرحلة الحديث عن البرنامج المقرر للرحلة وبعض النصائح والإرشادات الروتينية.

نهض «عصام» من على مقعده فتبعته «هاجر» و«شيماء» لكنه طلب منهما الانتظار حتى عودته، ذهب للغرفة الخاصة به ليحضر حقيبة المخطوطات، ولما وصل الغرفة وجدها مضاءة، وهو متأكد من إغلاقه

للمصباح لما غادرها منذ ساعة، شعر بشيء غريب يحدث، ذهب بصره سريعًا إلى الخزانة التي وضع فيها الحقيبة، لم يجدها، جلس على السرير ليستوعب ما يحدث، وما يجب عليه فعله، عجز عن وجود حل، بحث في كل مكان لعله وضعها في مكان آخر بلا جدوى، سأل موظفي السفينة عن الحقيبة، أخبروه لم يدخل أحد الغرفة، تذكر معلمه فأغلق الإضاءة وفتح الستائر، السماء ملبدة بالغيوم حجبت ضوء القمر.

عاد إلى سريره، جلس في الظلام يفكر كيف يتصرف في هذه المشكلة، وترى من الذي يسرقها؟ وما عمله معها؟ لمعت عيناه بفكرة صادمة انتفض واقفًا وحدث نفسه قائلًا:

-لا يمكن أن يكون أحد غيره فهو الوحيد الذي رآها ويعلم بوجودها معي، كيف يمكن مواجهته؟

تنبه لطرقات على الباب وصوت «هاجر» تناديه:

-«عصام» هل أنت بالداخل؟

فتح مسرعًا وأضاء الغرفة، فنظرتا له بدهشة، وتبادلا النظرات المتسائلة قالت «هاجر»:

-ألم تقل أننا سنخرج؟ لم تغلق الضوء؟ لماذا أنت قلق هكذا؟ ماذا حدث؟...

قاطعها بغضب:

-كفي عن الأسئلة وانتظري سأخبركما بكل شيء.

صمت قليلًا، ثم أجابها بصوت حزين:

-لقد سرقت المخطوطات.

فغرتا فاهيهما وقالتا في نفس واحد:

-سرقت؟ كيف؟

أجابهما والغضب يخنق صدره:

-لقد وضعتهم في الحقيبة ووضعتها في الخزانة، ولما أتيت لآخذها وجدت الغرفة مضاءة، وأنا متيقن أني لم أتركها كذلك، أسرعت للخزانة لم أجد الحقيبة بها.

قالت «هاجر» بحزن:

-ومن يعلم بأمرها غيرنا؟

فقالت «شيماء» بلهفة:

-نسأل موظفي السفينة، نراجع كاميراتهم، نطلب المساعدة من المعلم «تحوت».

أجابها:

-سألت الموظفين لم يدخل أحد منهم للغرفة، أنت محقة يجب مراجعة الكاميرات.

ذهب إلى المسؤولين وتجاوبوا معه، وبدأ عرض اللقطات المسجلة منذ خروجه من الغرفة حتى عودته، لم يقترب أحد من الغرفة، الشاشة

تعرض الممر فقط لا تعرض الباب، لاحظ «عصام» انعكاس الضوء في أحد اللقطات كأن الباب فتح، توقف عندها كثيرًا بلا جدوى، لاحظ المسؤولين أن الباب فُتح بالفعل لكنه أغلق دون أن يدخل أحد، اعتذر بيأس وعادوا إلى غرفته، قالت «شيماء»:

-لاحظت شيئًا لا أعلم إن كنتم لاحظتماه أم لا؟

أجابتها «هاجر»:

-شخص ما يتبعنا.

أومأ «عصام» وقال:

-ليس شخصًا عاديًا، يتخفى من الكاميرات ويعلم بشكل أو بآخر أمر المخطوطات.

أردفت «شيماء»:

-يجب الاستعانة بمعلمنا الآن.

قال «عصام» بكلمات يائسة:

-يأتي في وجود ضوء من السماء منبعث، والسماء ملبدة بالغيوم تحجب ضوء القمر، أمّا من يعرف بأمرها فهو شخص واحد.

سألتاه:

-من هو؟

أجاب وهو ينظر من النافذة إلى السماء:

-ضابط الأمن.

همستا بتساؤل:

-ضابط الأمن؟

أجاب بثقة:

-من فحص حقائبنا، ألم تريا نظراته الماكرة بعدما تحولت إلى شكل المجلات؟

قالت «هاجر» واتسعت عيناها:

-هل تقصد أن المجلات كانت بالفعل هي المخطوطات؟

قالت «شيماء» وقضبت حاجبيها:

-وإن كان كما تقول، نظراته لم تكن ماكرة، كان غارقًا في الحرج...

قاطعها بحزن:

-لم أعد قادر على التفكير، ما الحل؟

ابتسمت «شيماء» وأجابته:

-لدي طريقة لاستدعاء المعلم «تحوت».

لم تنتظر ردًا منهما أشارت لـ«هاجر» لتغلق الضوء وجلست تردد ترنيمة خاصة بصوت هامس لم يصل لآذانهم إلا دندنة بسبب صوت هدير الرعد، أرسلت السحب أشعة البرق، تتلو ترانيمها حتى ازدادت قوة البرق، هاجت الأمواج واهتزت السفينة بعنف، ازدادت عاصفة البرق، فنظر «عصام» وتبعته «هاجر» إلى الجانب الأيسر من الغرفة

اطمأنت قلوبهم، معلمهم واقفٌ أمامهم لكنه عاقدًا ذراعيه على صدره بصمت، نهضت «شيماء» وجثوا الثلاثة على ركبهم اقترب منهم وتردد صوته في عقولهم بغضب:

-الاهتمام بالأمانة شيء عسير على البشر منذ مولده الأول

أشار لهم بالنهوض وأردف:

-سأقدم المساعدة لكن قدرتي على ذلك في نطاق محدود، ليست كل الأمور في استطاعتنا.

نهضوا وقال «عصام» ووجهه مشتعل خجلًا:

-أطلب الصفح، لم أتوقع معرفة أي شخص بأمر المخطوطات.

نظر إليه نظرات غضب ودوى صوته في عقولهم:

-يجب التوقع، عليك الحذر مما لا يخطر على أي عقل.

نصحهم المعلم، وتعمد تأنيبهم على التقصير، ثم صمت قليلًا اقترب بخطوات بطيئة من «عصام»، وضع يده على كتفه، وأردف بصوت مطمئن يخفف من توتره وحزنه:

-أنا معكم، لن أتخلى عنكم أبدًا، عليكم مساعدتي كما أقدم لكم المساعدة، سيذكركم التاريخ كأبطال، استطاعوا تحرير علوم القدماء.

ابتسم «عصام» ابتسامة حزينة، أردف المعلم:

-لا تقلق المخطوطات قريبة منكم. في فندق قريب من المكتبة القديمة، انتبه لما أقوله جيدًا...

تجهزوا لتنفيذ التعليمات الجديدة لاستعادة المخطوطات، استأذنوا من منظم الرحلة بعض الوقت خارج السفينة، وتركوا لهم أرقام الهواتف بناء على طلبه، خرجوا في جو ماطر، يشعرون بمتعة في ملامسة قطرات المطر المنهمرة لوجوههم واختراقها لملابسهم لتقبل أجسادهم، أوقفوا سيارة أجرة وقال له «عصام»:

-الفندق الروماني.

أومأ برأسه بابتسامة من وجه بشوش وأجابه:

-هيا اركبوا سريعًا من المطر.

سار بهم على شاطئ البحر وهو يمد يده اليسرى خارج النافذة لتستقبل قطرات المطر، ضوضاء الأمواج، هدير الرعد، أضواء البرق، رائحة اليود، الطبيعة تعزف مقطوعة موسيقية دامعة، تحرك المشاعر، توقف أمام مبنى الفندق ومسح بيده المبللة بماء المطر وجهه وقال بابتسامته المعهودة:

-حمدًا لله على سلامتكم.

تركوا السيارة ودخلوا الفندق، توجهوا إلى الاستقبال، استقبلهم الموظف بلطف –وسيمًا، مبتسمًا، أنيق الملابس، رائحة عطره نفاذة، يرتدي عوينات طبية- قال له «عصام»:

-نريد غرفتين متجاورتين.

فابتسم الموظف مرحبًا مرة أخرى وسأله:

-لكم ليلة؟

لم ينتبه «عصام» لكلمته، ركز نظره وطاقته على صورة الحاسوب المنعكسة على عوينات الموظف، علم أن «طارق» من كان في السفينة ونزل هنا، عرف رقم غرفته، رمق «هاجر» و«شيماء» بدهشة، ثم أجاب الموظف:

-أريد أن أرى الغرفتين ٣٠٥ و٣٠٧ إن كانتا فارغتين؟

شعر الموظف برهبة من نظراته إليه، أجابه بتلعثم:

-بكل سرور، كم ليلة ستبقى؟

فكر قليلًا ثم تمتم بصوت مسموع:

-ليلة أو ليلتان لا أدري بالضبط.

رافقهم أحد العمال إلى الغرفتين، ذهب «عصام» إلى الشرفة ونظر للمسافة بينها وبين الشرفة التالية، قالت «شيماء»:

-لماذا اخترت هاتين الغرفتين بالتحديد؟

أجابها وهو يشير للشرفة التي بجوارهما:

-«طارق» في الغرفة المجاورة.

همست «هاجر»:

-أتقصد من تدخل في حديثنا؟

أطرق برأسه وهمس:

-نعم، كان يسترق السمع ويتابعنا بأنظاره طوال الرحلة.

سمع صوت فتح باب الغرفة المجاورة ، اقترب من الباب بحذر، فتحه قليلًا فرأى ظهر الرجل يبتعد، أغلق الباب وقال لهما:

-سأدخل الغرفة وتراقبا الممر، حاولا ألا يلاحظكما أحد.

أومأتا بالموافقة بقلق خرج «عصام» ليفتح باب الغرفة لكنه كان مغلق بالمفتاح، فاستعمل شيء من الطاقة التي منحها له معلمه وضغط على الباب، انفتح، دخل وبحث عن الحقيبة.

شيء ما أوقف «طارق» قبل خروجه من الفندق، حدث نفسه بقلق: «لقد وصلوا إليّ بسرعة»، انقبضت قسمات وجهه، رجع مهرولًا ناحية السلم.

«عصام» يبحث عن الحقيبة تحت السرير وفي الخزانة، غير موجودة، شعر باليأس في أن يجدها، أخيرًا وقع بصره على الثلاجة الصغيرة، ابتسم وفتحها وأخذ الحقيبة، ألقاها لـ«شيماء» من الشرفة.

فتح الباب انصدم بعودة «طارق»، فنظر له «عصام» بابتسامة ولمعت عيناه بضوء أزرق وأمسكه من ياقته وقال له بصوت ألقى الرعب في قلبه:

-لا تحاول سرقة شيء يعود لي مرة أخرى.

وقبض بكفيه على رأس «طارق» فتوهجت مقلتاه باللون الأحمر، فشل في التخلص من قبضة «عصام»، كانت كافيه لتسكن جسده، دخلت «هاجر» رأت جسد الرجل في يد «عصام» بلا حراك، ألقاه على السرير، وغادر وقفل الباب كما كان.

أخذ «هاجر» ودخلا إلى الغرفة، شعر ببعض الإرهاق يبدو أنه غير معتاد على آثار استخدام الطاقة، صمت بعض الوقت، التقط أنفاسه وصاح بغضب:

-كيف تتركانه يدخل الغرفة وأنا بالداخل؟

أجابت «هاجر» بخجل:

-لم أره كنت أساعد «شيماء» حينما ألقيت لها الحقيبة من الشرفة فقد علقت منها.

قال وهو يحاول أن يكون هادئًا:

-حسنا هيا لنذهب الآن.

قالت «هاجر» بقلق:

-هل مات الرجل؟

هز رأسه وهمس:

-كلا، لم يمت فقد الوعي فقط، اتركي روحك البشرية للروح التي حلت معها ستشعرين بقدرة أكبر على تقبل الأمور.

تذكرت حينما أخبرتهما «إيزيس» بأن الأرواح ستتبع القانون السائد حول الأجساد، أومأت برأسها، غادروا الغرفة، اقترب «عصام» من موظف الاستقبال وتحدث معه وهو ينظر لدفتر تسجيل البيانات، تبخر الحبر واختفت أسماؤهم وكذلك الحاسوب انطفأت شاشته وعادت سريعًا كالومضة فاختفت بياناتهم، وسط دهشة وفزع من الموظف همس في أذنه بابتسامة:

-طاب مساؤك.

أومأ الموظف برأسه بابتسامة وتلعثم:

-طاب مساؤك.

تركوا الفندق، أوقف سيارة أجرة والصمت يرفع رايته عليهم، حتى وصلوا السفينة، لم يشعروا بالمطر ولا العواصف البرقية التي خفت حدتها قليلًا، وما أن دخلوا غرفة «عصام» حركت «شيماء» الصمت بقلق:

-ماذا لو أن موظف الاستقبال تحدث بما رأى؟

نظر «عصام» لهما وقال بوجه جامد:

-لقد نسي كل شيء بمجرد ذهابنا، لا وقت للتساؤل عن شيء مضى، دعونا نرى ماذا أخذ من الحقيبة.

نظرتا لبعضهما نظرات متسائلة، تجاهلهما وفتح الحقيبة أخرج المخطوطات وبدأ يتفحصها، أخذت «هاجر» الحقيبة وقالت بدهشة:

-ما هذا؟

-٩-

خارطة البداية

نظر لما تمسكه «هاجر» أربع قطع ورق بردي نقش عليها رموز هيروغليفية، تعبر عن الأرقام من ١ إلى ٤ رتبهم رقم ١ في الأعلى يمين ثم٢ على اليسار أسفلهما اليمين ٣ وأخيرًا الرقم ٤، لم يتطابق شطريّ الجزء الأسفل مع بعضهما ولا مع الجزء العلوي، غير ترتيبه ليكون الرقم ٤ أسفل الرقم ١، اكتمل شكل خريطة لموقع ما، ألجمتهم الدهشة وتمتمت «شيماء»:

-إنه المعبد المنشود.

فحصوها بتركيز، وهاجمتهم التساؤلات:

-كيف حصل عليها هذا الرجل؟ وكيف يعلم بوجهتنا؟ والأهم من كل ذلك من هو؟

قلبت «شيماء» باقي البرديات بنفس ترتيبها لتتشكل رسمة أخرى وعبارة هيروغليفية «اتبع طريق النفق» الرسمة كأنها شجرة متفرعة، نظرت لها «هاجر» بذهول وقالت:

-إنها تشبه خطوط الشجرة التي كانت على جسدك بعد الحادث.

قالت «شيماء»:

-لا شك أن الحادثة هي البداية، على كل حال حصلنا على نصف الطريق.

نظر لها بصمت، شرد ذهنه قليلًا سألته:

-ما بك؟ لمَ هذا الشرود؟

أجابها بوجه جامد:

-الأمر مريب للغاية، كيف علم بوجود المخطوطات؟ من أين حصل على البردية؟ نظرات عيونه كانت غريبة، أتساءل هل هناك أحد غيرنا يعلم بالمهمة؟

أطبق الصمت على الغرفة صدمت كلماته عقولهم، ضوء البرق يزيد إضاءة الغرفة بين الفينة والأخرى، همست «هاجر»:

-هناك شيء غريب...

أومأ «عصام» ثم هز رأسه لينفض الأفكار عنها، نظر للنافذة وأشعة البرق تنعكس على الأمواج، وهمس بهدوء:

-أغلقي الإضاءة.

عم الظلام الغرفة لا يقطعه إلا أشعة البرق أضاءتها بالكامل، خفت الضوء، وظهر «تحوت» في أحد أركان الغرفة أحنوا رؤوسهم إجلالًا، تردد صوته في عقولهم ونظره على الخارطة:

-استعدتم المخطوطات وحصلتم على الخارطة المفقودة.

نظر إليها «عصام» وأجابه:

-وجدناها في الحقيبة بعد استعادتها، كيف حصل عليها؟

تردد صوته في عقولهم:

-كل شيء في أوانه، غادروا السفينة الآن، يجب إنهاء المهمة سريعًا كي لا تزيد العقبات، أما السارق منتظر ظهوره بعدما أعلن عن نفسه بصرخاته عند معبد أبيدوس، لم أكن أريدكم أن تنشغلوا به.

الذهول يعصف بوجوههم، يستمعون له وتستدعي ذاكرتهم ما يذكره، كأنهم يعلمون به من قبل، تشكلت التساؤلات على شفاههم وما ملكوا القوة لنطقها، أخرجهم من خوفهم وقلقهم لما تردد صوته في عقولهم:

-لا أريد أن يؤثر عليكم القلق، إني معكم، ستغادرون السفينة وتبدأ مهمتكم، ليست سهلة، كونوا حذرين فمن اليسير تتبع الهالة المقدسة المحيطة بالمخطوطات.

لملموا أغراضهم سريعًا وهم في حيرة من أمرهم، من هذا الرجل؟ وما قدرته؟ وإن كان يملك من القوة ما يكفي ليهاجمهم؟ أسئلة كثيرة تركوها جانبًا وأخذوا أمتعتهم وغادروا السفينة ليستقلوا سيارة أجرة، وهم في انتظار مرور سيارة طرأت أسئلة على عقل «عصام»، لماذا طلب منه الذهاب في سفينة عبر النيل؟ لماذا طلب منه رفقة اثنان من المقربين له؟ وما وراء صرخات ذلك الرجل بالقرب من معبد أبيدوس؟ قطعت تفكيره «شيماء» قائلة:

-أتينا لأنك ستحتاج لمن يعينك، لدينا قوتنا الخاصة تظهر وقت الحاجة، صرخاته بسبب محاولة الروح القديمة التي تحركه الحلول في جسده لكنها لم تستطع بسبب قدسية النيل، وهذا ما جعله ضعيفًا فقد الكثير من قواه.

تذكر حينما هاجمه في الفندق وعدم قدرته على المقاومة، أضافت «هاجر»:

-هذا سبب اختيار النيل للرحلة، أين سنذهب الآن؟

نظر إليهما بدهشة:

-هل كنت أفكر بصوت عالي؟

أجابته «هاجر»:

-لا تسألنا عما نملك من قوة.

هز رأسه بسخرية:

-أنا في خطر، تفكيري مراقب، لكني حقًا أفكر إن كنت على علم بما أفعله أم أني مسير في ذلك ومجرد آلة.

همست «شيماء»:

-كل شيء يظهر في حينه، لا تنسيا أننا في الشارع، إلى أين سنذهب؟

أشار «عصام» لسيارة أجرة، ركبوا وقال للسائق:

-أبو قير.

نظر لهما وهمس:

-«كانوبوس» البقعة التي منحت «إيزيس» ما تبقى من جسد زوجها المبعثر في أنحاء البلاد، الأرض المباركة التي وجدت فيها راحتها من العناء الذي تكبدته بسبب القاتل «ست»، لملمت جسد الزوج المغدور «أوزيريس» في مزهرية واحتفظت به في «كانوبوس».

سار بهم السائق وهو مشغول في مكالمة هاتفية، حتى وصل مركز المدينة فالتفت إلى «عصام» وسأله:

-ها نحن وصلنا إلى أبي قير أين تريد أن تذهب بالضبط؟

أجابه «عصام»:

-فندق...

قاطعه وهو يهرش خال بارز أعلى حاجبه الأيمن وكأنما لمعت في عينه فكرة وأجابه:

-عندي اقتراح رائع أفضل من الفنادق يا صديقي.

أجابه بانتباه:

-ما هو؟

أجابه السائق:

-أوصلك لمبنى به شقق فندقية وتكلفة الأسبوع فيها تساوي تكلفة ليلتين في الفندق فقط.

هم «عصام» بالرد عليه فعاجله السائق بشرط جيد قائلًا:

-وبشرط أن ترى الشقة أولًا وإن لم تعجبك لا تسكن لن يجبرك أحد على ذلك.

نظر «عصام» لرفيقتيه وجد الكثير من الأسئلة على وجهيهما فعاد ببصره إلى السائق وأومأ برأسه موافقة، انحرف السائق يسارًا ليأخذ أسرع طريق إليها.

وصلوا أمام منزل من سبع طوابق بواجهة مرصعة بأحجار «المايكا» ومزودة بإضاءة تضفي على المنزل فخامة لا مثيل لها، ولوحة مضيئة كتب عليها «قصر سميراميس» نظروا للمدخل المحلى بالرخام، نظر للسائق وأومأ برأسه برضا لجمال اقتراحه، كانت في استقبالهم سيدة في نهاية العقد الثالث من العمر بوجه باسم، رحبت بهم بصوت مرهف جميل، أخذتهم ليشاهدوا الغرف وانتظرهم السائق في الاستقبال حتى ينتهوا، كانت الغرف جميلة قالت «هاجر» بدهشة:

-هذه الغرف لو كانت في فندق لكانت مميزة بالخمس نجوم، ما هذا الجمال يا...

قالت السيدة بابتسامتها الرقيقة:

-اسمي «وعد»، هذا العقار ورثته عن والدي -رحمه الله- ليس لي مصدر رزق غيره فعملت على تطويره حتى يستمر في عطاؤه.

صمتت قليلًا ثم قالت مبتسمة:

-إن أعجبتكم الغرف فرجاءً لننهي إجراءات السكن.

ذهب معها «عصام» وأعطى للسائق أجره وزاد عليه الضعف لاقتراحه الرائع، عاد للغرفة جلسوا معًا يفكرون فيما حدث، ذهب لغرفته، أغلق الضوء وفتح النافذة لتغزوا أشعة القمر الفضية الغرفة، انتصب واقفًا بخشوع حتى تشكلت هيئة معلمه أمامه أحنى رأسه، فوضع المعلم يده على كتفه، تردد صوته في عقل «عصام»:

-بدأت المعركة.

نظر له بعيون متسائلة، فقال له معلمه بصوته الحنون:

-أعلم ما يدور في رأسك ولتعلم بعض الإجابات ستتألم، هل مستعد لذلك؟

أومأ برأسه بعدما ازدرد لعابه وقال:

-نعم.

وضع المعلم يديه على رأس «عصام» الذي شعر بماس من الكهرباء يسري في عقله من الداخل، ازداد ألم الكهرباء، وانتفض جسده وتعرق حتى ابتلت ملابسه وزاغ بصره، اختفى سواد مقلتيه، معلمه يتمتم بترانيمه حتى استسلم جسده وسكن عن الحركة...

-١٠-

الصندوق المقدس

أفاق «بلادس» على صوت الأمواج وصياح طيور البحر، الرياح تذروا الرمال على جسده، الألم يفتك برأسه، تحسس جبهته شعر بشيء لزج، نظر فوجدها متلطخة بالدماء، علم أنه أصيب ولا يذكر ما أصابه، تحامل على نفسه وأعتدل جالسًا، نفض الرمال عن ملابسه - تنورة تستر منتصف جسده السفلي، ووشاح متصل بها ملتف على بطنه وصدره وملقى على كتفه الأيسر والكتف الأيمن عاري- دقق النظر فيما حوله، أمواج البحر تتسابق تجاه الشاطئ، الطيور تتصارع على الأسماك الصغيرة، سواري القوارب ترقد بالقرب من الشاطئ، نظر للناحية الأخرى وجد الشمس تختفي لم يبقى منها سوى بعض الأشعة الحمراء الباردة، رأى رجلًا يركض نحوه بزي الجنود البيزنطيين، يمسك رمحًا ودرعًا، ما إن رآه حتى صاح في زملائه:

-إنه هنا اقبضوا عليه

لم يستوعب ما يحدث، أخبره عقله بوجوب الهرب، كلمة الحارس توحي أنهم اكتشفوا أمره، علموا أنه من المجموعة التي تعمل على حفظ العلوم القديمة وتعلمها للشباب، ركض وهو يتحامل على نفسه، ساعده جسده المفتول العضلات على التحمل، لا يدري إلى أين يذهب، ركض

في طرقات المدينة العتيقة، المنازل الحجرية على جانبي الطرقات المعبدة بالحجارة، رأى الجندي خلفه هو ومن معه من جنود، استطاع تضليلهم والهرب منهم، خرج من المدينة إلى الصحراء المطعمة بأشجار السدر غرب مدينة «هرقليون».

أيقن أنهم لا يتبعوه، اتكأ على جذع شجرة ليلتقط أنفاسه، وفجأة رأى أحد الرجال ضخم البنيان يرتدي قلنسوة من الكتان وملثم الوجه، يمتطي حصانًا في يده لجام ذلك الحصان وبالأخرى يمسك بلجام حصان آخر يقتاده لا أحد على ظهره، لا حل أمامه إلا المواجهة، لو كان عدوًا فلا حل سوى قتاله، وإن كان صديقًا يجيبه عما يحدث، التفت حوله فلم يجد ما يعينه على القتال، فقبض بيده على حجر واستعد للقتال به.

لحظات ووقف الرجل بحصانه وسبقه غباره وقال بأنفاس متسارعة وهو يلقي لجام الحصان إليه:

-«بلادس» هيا بنا بسرعة.

لم يعطه الفرصة للسؤال لكنه يعلم أن خطر محدق به ما دام بالقرب من المدينة، فامتطى الحصان واستدار ناظرًا للخلف إلى مباني المدينة التي بدت أمام الأشعة الحمراء للشمس كالخيال، المعبد الشاهق الارتفاع يلقي بظلاله على مباني المدينة الحجرية، وهناك خلفها يكمن الوادي الأخضر بجوار الفرع الكانوبي للنيل، صاح به الرجل حينما رأى غبارًا يتصاعد من بعيد:

-هيا لقد عادوا لملاحقتنا.

لكز حصانه فوقف على قائميه الخلفيين وصهل بقوة اهتزت لها الصحراء فأجاب صهيله الحصان الآخر، انطلق سريعًا مع الرجل ولا صوت يصدر إلا صوت حوافر الأحصنة وصوت شهيقها وزفيرها المضطرب، اقتربا من واحة نخيل فكبحا لجاما حصانيهما، ورأى الرجل يخرج خنجرًا فتهيئ للدفاع عن نفسه، لكنه مد له الخنجر وقال له:

-احمِ نفسك به.

أخذه وهو يتساءل في قرارة نفسه «من هو هذا الرجل ولما لم يكشف عن وجهه؟ هل هو عدو أم صديق؟» ترك أفكاره وأخذ حذره وآثر الصمت كعادته حتى يتبين ما حوله، دخلا وسط الواحة في وسط الظلام الذي حل على الكون، ربطا الأحصنة وأخرج الرجل فراشين من صوف وأعطاه واحد منهما فأخذه بضجر وقال بعدما مل من صمته:

-من أنت؟ وما الذي يحدث؟ ولِمَ يطاردنا هؤلاء الرجال؟

أزاح اللثام عن وجهه وظهرت ملامحه بشيء من الغموض بفعل الظلام الذي لا يقطعه سوى البعض من ضوء القمر المتسرب من بين أطراف النخيل، وأجابه بصوته الجهوري:

-لا مكان لنا في «هرقليون» بعد الآن، صدر الأمر وسيتم القضاء على علوم القدماء، سيقومون بحرق المكتبات.

نظر له بشيء من الصدمة، وهو يضع يده على رأسه وقال:

-«أفيلوس»! ما الذي حدث؟

أعطاه قارورة ماء ليروي ظمأه، وأخرج من حقيبته قطعة من كتان واقترب منه يضمد جرح رأسه الذي نزف مرة أخرى بسبب الركض، وقال:

-صدر مرسوم بيزنطي بإغلاق المعابد وإحراق مكتباتها

تذكر «بلادس» اتهام البيزنطيين للمعابد بأنها تنشر الديانة الوثنية، إذن كشفوا أنهم الجواسيس الذين يعملون في القصر، أردف «أفيلوس» متسائلًا:

-ما الذي حل بك؟

هز رأسه بغضب بدا على وجهه رغم الظلام الحالك:

-لا أدري، آخر شيء أذكره أني سقطت من على حصاني لا أذكر شيئًا آخر.

أجابه:

-لا تقلق ستتذكر كل شيء، لكنهم يعلمون أن أغلب من يذهبون إلى المعابد يذهبون لتلقي العلم، وأنت نفسك تدرس لهم العلوم والطب، لو تم إغلاق المعابد سيتدمر العلم.

أومأ بأسى وذكره أن بإغلاق المعابد سيتدمر العلم، وسيضرِب سور كبير بين حضارة وصلت للسماء وبين الأجيال القادمة، التاريخ سيظلمهم وتظن الأجيال القادمة أنهم عادوهم لعبادة آلهة متعددة، صدقت نبوءة الكاهن الأكبر في فراش الموت، أخبرهم أن هؤلاء الهمج لا يدركون

أن المعابد تخرج آلاف الطلاب كل عام من بين جنباتها، تعلمهم القراءة والحساب وبعض العلوم، كل الأطباء في جميع أنحاء المملكة تخرجوا منها، لا يدركون أن كل المهندسين نهلوا من أنهار العلوم المجمعة في مكتباتها؛ كان أولئك الشباب مؤمنون أن العلوم التي في المخطوطات هي الرابط الوحيد مع الحضارة قبل العاصفة التي دمرت كل شيء، العلوم هي الأمل الوحيد للوصول لحضارتنا السابقة لقد مر أكثر من ألفيّ سنة ولم يقدر أحد على إعادتها لما كانت عليه من قبل.

أجابه «أفيلوس» بحزن عارم:

-مهمتنا الآن حماية العلوم من نيرانهم كما حرقوا المكتبة الكبرى.

سأله «بلادس» بصوت مختنق:

-كيف؟

نهض وتبعه «بلادس»، أخذ لجام حصانه وهو يقول:

-الحل هناك في «كانوبوس».

امتطيا الأحصنة وشقا طريقهما في ظلام الليل، يهتدون بضي النجوم، ليصلوا للمدينة سريعًا، وصلا مشارف المدينة، وظهرت أشباح المنازل الحجرية وانعكاس بعض الأضواء على الطرقات في هدوء، تسللا بهدوء مبتعدين عن مشاعل الضوء حتى لا يتعرف عليهما أحد، الناس في منازلهم يتسامرون مع عائلاتهم، حينًا تسمع بكاء طفل صغير، أو ضحكات تشق هدوء الليل تكشف عن تسامر سعيد بين أفراد البيت؛ وأخرى تسمع

صوت الخطوات المنتظمة على الطرق المعبدة بالحجارة تقبض القلب بحقد لذلك المحتل الذي جاء ليمحو تاريخ وحضارة وطنك.

تسللا إلى معبد سميراميس - الصرح المعماري العظيم، أعمدته العالية وجدرانه الضخمة - كان الملاذ يحمى في مكتبته ما تبقى من علوم، بعد حرق المكتبة الكبرى، جاء الوقت الذي يطاردون فيه العلم في المخطوطات كما يطاردون المقاومين من أبناء الوطن، نظرا للمعبد من بعيد، شعرا بحزن يغزو قلبيهما لما صار عليه من ظلمة وظلام، بعدما كانت أضواؤه تنير «كانوبوس» بإثرها، همس «أفيلوس»:

-الجنود البيزنطيون يقفون أمام المعبد.

سأله «بلادس»:

-من الجانب الخلفي.

أومأ برأسه وقال:

-حسنًا، ألا يوجد هناك حراسة؟

أجابه وهو يتراجع للخلف:

-أظن ذلك هيا بنا.

ذهبا للجانب الخلفي وكان بدون حراسة، اقتربا بحذر، وصلا سور المعبد الشاهق وأخذا يتحسسان الأرض من تحتهما وجدا العلامة، نبشا التراب عنها حتى ظهر لوح صخري مزخرف بالكلمات الهيروغليفية بمقبضين من نحاس يلمعان بضوء النجوم كأنهما نار متوهجة، جذباه

بكل ما بقي لديهما من قوة ليكشف عن نفق مظلم، به سلم من خشب البلوط، وضعا اللوح الحجري بشكل يمكنهم من إعادته لوضعه بعد نزولهم، أقفلا النفق مرة أخرى فصارا لا يريان جسمهما من شدة ظلامه كأنما فقدوا الرؤية، فسارا حتى نهايته وهما يتحسسان الجدار، وجدا بابًا حجريًّا فدفعه «أفيلوس» بقوة لم يتحرك فساعده «بلادس» انفتح ببطء وغزا ضوء الأحجار المضيئة النفق، الباب أقل من المتر عرضًا والمتر ونصف طولًا دخلا وأغلقاه، أمامهما ثلاثة أبواب كل باب سبعة أزرع في عرض أربعة أزرع من رخام منحوت بشكل منمق، وعلى صفحاته نقوش هيروغليفية، بالقرب منها ثلاثة أعمدة من نحاس، في كل عمود مكعب فارغ في وسطه صورة طائر، أخذ «أفيلوس» مشعلًا من على الجدار وقرأ الرسالة على الباب وطابق الوصف على شكل الطائر على العمود، حرك الطائر الذي على العمود الأيمن حركتان لليسار وحركة للأعلى ثم حركة لليمين حركتان للأسفل، فأصدر الباب صوتًا صاخبًا وهو ينفتح فنظر لصديقه وقال بابتسامة:

-الكنوز آمنة.

أومأ «بلادس» برأسه وقال:

-حسنًا، الآن يجب أن ننقل كل ما في المكتبة إلى ذلك السرداب سريعًا قبل شروق الشمس وانكشاف أمر النفق إنا أغلقناه لكن لم نخفِ أثره.

دخلا الباب ليظهر أمامهم أربعة أبواب من نحاس بدون نقوش، قال «بلادس»:

-المخطوطة تقول أن المدخل الثاني هو عدد الحركات التي فتحت الباب يطرح منها عدد الأبواب التي لم تفتح.

فأجابه وهو يومئ برأسه:

-بالضبط أنت تحفظها جيدًا.

ذهب للباب الرابع على اليمين وهو يقول:

-إن بدأت الحركات لليسار، فالمدخل الثاني على عكسها.

أخذ بمقبض دائري ولفه نصف دائرة فأصدر الباب صليلًا مزعجًا، كاد أن يصم آذانهم فدخلا، خلفه السرداب الضخم الذي جمعت فيه كل المخطوطات الفريدة ونسخ من المخطوطات التي حُرِقَت في المكتبة الكبرى وصندوق ضخم، نظر إليه «بلادس» بأسى وهمس متنهدًا:

-ذلك الكنز يخفي سر الوصول للسماء، يحفظ أغلى ما وصلت إليه عقول الأولين من أفكار، إنه الصندوق المقدس، كُتِبَ له أن تحفظه «كانوبوس» كما حفظت جسد أوزوريس.

وما أن قال كلمته الأخيرة حتى ظنا أنهما شعرا أنه ينظر إليهم، إنه هو بهيئته بكيانه نظرا إليه فشعرا بذاك الشعور الغريب، بين الرهبة والأمان، فأسبلا أعينهما حتى شعرا بالأمان، تبادلا النظرات التي تملؤها الحيرة، «هل كان هو؟ هل كانت نظراته راضية؟ هل أراد أن يخبرنا أنه معنا يحمينا ويرعانا؟»

تساؤلات تطرح تساؤلات كأنها خيط لا ينتهي، نفضا عن رأسيهما كل الأفكار ونهضا لينقلا المخطوطات من المكتبة بجانب الصندوق، عبر نفق

صغير يفضي إلى الأبواب الأربعة، حتى ظهر التعب والإرهاق عليهما، تمسكا بالصبر والعزيمة حتى آخر مخطوطة، قال «أفيلوس» وهو يمسح قطرات من العرق نزلت على عينه:

-أنهينا مهمتنا، ماذا سنفعل الآن؟

أجابه «بلادس» وهو يمسح بيده على غطاء الصندوق:

-نهرب يا صديقي إلى الجنوب، إلى وقت العودة.

ردد كلمته بدهشة وتساؤل:

-الجنوب؟!

أومأ مؤكدًا:

-نعم الجنوب

يعلم أن الجنوب قلعة الوطن الحصينة، حيث الأصالة لم تلوث، تذكّر إعدادهم للمهمة الشاقة هناك، الطلاب هم مخازن العلم، يتوارثونه كالذهب والفضة، سيهاجران يهبان حياتهما للعلم، يقيمان منارة لتعليم لغة الأجداد الأصيلة، لتتوارث الأجيال فك الرموز، ويأخذون العلم بأنفسهم، يخبروهم بأسرار الأجداد أمانة الآلهة.

نظر له «أفيلوس» وعلامات اليأس كادت أن تثبط عزيمته، قال بحزن:

-ما الذي فعلناه لنكون الناجين من مئات المعلمين الذين سجنوا، وقُتِلُوا في الحمى ضد العلم؟

-لِمَ نحمل هم البشر في الحاضر والمستقبل؟

-نحمل هموم أجيال يشوهون تاريخهم ويقطعون عنهم الماضي، لماذا؟

-أكان الأفضل مسالمة البيزنطيين والعيش في رغد بما نملك من مال، وما سيغدقونه علينا؟

-أسئلة كثيرة يا رفيقي لا أجد إجابات عنها.

سالت دموعه، فاقترب منه ووضع يده على كتفه وهمس بصوت حاني:

-لا نصلح للنفاق يا رجل، لم ننشأ على ذلك، نحمل الهم لأن في صدورنا نار الحق، نجونا لنتمم رسالتنا وننهي المهمة الواقعة على عاتقنا، الإله يريد منا إشعال نار الحق من الجذوة التي وهبنا.

وضع يده على صدر «أفيلوس» وهمس:

-يا رفيقي هموم الحكماء تفوق هم النفس، تسافر عبر الأزمان، تتجاوز السنين، يجدر بنا الفخر بمقاومتنا الظلم، بحربنا على دعاة الجهل، تمالك نفسك وعاهدني على الأمل ما دمنا على قيد الحياة، لا وقت لليأس.

مد له يده فأخذها وقال بوجه مهموم:

-أعاهدك.

انطلقا يغلقان الأبواب كما كانت لتكون المخطوطات في أمان، قال «أفيلوس»:

-الألغاز ستحمي المخطوطات من اللصوص والأعداء.

شرح له، من يحاول فتح الأبواب ولا يعلم سر الرسالة، جاهل بمطابقة الحركات والرموز، تنفتح طاقات بالأعلى وينتشر غاز سام يقتل من يستنشقه خلال لحظات، الأخطر من ذلك إذا تمت محاولة السرقة مرة أخرى ينهار المعبد، وقد تتبعه المدينة، وتكون أثرًا بعد عين.

فغر «بلادس» فاه وقال:

-بكل ما فيها؟ أطفال وشيوخ أبرياء؟

أجابه بجمود:

-حماية المخطوطات للأجيال القادمة تستحق التضحية، لا تقلق ستكون هناك مقدمات، وحكماء يعرفون العلامات لينقذوا سكان المدينة قبل الانهيار.

أغلقا الأبواب وعند باب النفق الحجري، ينبعث الضوء من الأعلى، الجنود كشفوا موقع السرداب، رمقا بعضهما بقلق همس «أفيلوس»:

-نخرج ونواجههم؟

نظر له نظرة ذات معنى، صعدا السلم وخرجا من النفق، يحاوطون المكان، أصابتهم الصدمة، لوجود الرجل الأسمر طويل القامة أصلع الرأس فقالا بغضب:

-«ديليسيوس» أنت الخائن؟

قال بجمود:

-لم أخن أحدًا، اشتريت نفسي، لأعيش ميسور الحال باقي حياتي، لن أحيا على أوهام الماضي.

صمت قليلًا ثم أردف:

-الدور عليكما كونا معي، فكرا في مستقبلكما، أسرة غنية، منزل كبير، حياة رغدة.

أجابه «بلادس» بغضب:

-لا يوجد ما يستحق بعد ضياع الوطن.

طأطأ «أفيلوس» رأسه وقال:

-أفكر كثيرا في إزاحة الهموم عن كاهلي، أنعم بزوجة جميلة تنتظرني، بيت واسع وأبناء يمرحون، يملؤونه صياح وصخب يطرب القلب.

تنهد بأسى ثم قال:

-انضمامي إليك يضمن لي الأمان بجانب ما تعدنا به؟

رمقه «بلادس» بنظرة غضب فتملص منها، أجابه «ديليسيوس» بوجه حازم:

-أعاهدكما على ذلك، بشرط تخبرونا بموقع الصندوق.

قال «بلادس» بأسى:

-لا تطاوعه يا صديقي إنه فخ.

لم يجد ردًا من صديقه سوى طأطأة الرأس، نظر لـ«دليسيوس» بغضب وقال:

-سيلعنكم التاريخ، ستلفظكم صفحاته كما يلفظ البحر الجيف.

هزّ رأسه وقال:

-لا يوجد شيء يدعى تاريخ، يبنى التاريخ بوجود الذهب.

أشار للحراس بأخذ «بلادس» للسجن وترك «أفيلوس» سيذهب معه، رمقهم «بلادس» بحقد وغضب، تساءل في نفسه «لماذا يخون «أفيلوس»؟ ليس بحاجة للمال ولا يطمع في رغد الحياة، إنه صياد، الصياد لا يهوى الاستقرار والدعة، ما الذي غيره؟»

سار به ثلاث جنود بواسطة عجلتين حربيتين لتودعه السجن، وما هي إلا دقائق ووجد السهم يخترق حنجرة الجندي بجواره وسهم آخر يخترق ظهر أحد الجنود على العجلة الأخرى، فقبض بيديه المقيدتان على لجام الأحصنة وأوقفهم، تقدم فارس ملثم وهو يصوب سهماً ليخترق قلب الجندي الأخير، نظر إليه لم يحتاج وقتًا ليعرفه.

كشف «أفيلوس» عن وجهه وقال:

-مد يدك لا وقت لدينا.

مد يده فسحب خنجره بسلاسة ففك وثاقه، وأخذ أحد الأحصنة وانطلقا يفكران في حيلة للخروج من المدينة قال «أفيلوس»:

-النهر.

ابتسم وشعر بالأمل ينتفض في عروقه وقال:

-هل نعبر للجهة الأخرى، والخيول؟

رد «أفيلوس»:

-نتركها قبل الوصول للنهر حتى لا تعرقلنا ولا تقلق سنذهب لمخبأ مجهز لمثل هذه الأحوال، فيه خيول جهزت لهذا اليوم.

قفزا في النهر، غمرهم ببرودة الماء، والسكينة، عبرا للضفة الأخرى، بمشقة وتعب تثقل أقدامهما، تحاملا على نفسيهما ليصلا واحة النخيل، سارا حتى وصلا مركزها استقبلهما أحد الفلاحين، فألقيا جسديهما على الأرض وناما بأمان ليستجمعا قوتهما، ارتفعت الشمس استيقظا، أكلا قطع من اللحم المقدد وبعض النبيذ الذي أعده لهما الفلاح، ودَّعاه وامتطيا حصانين وزادهما الأمل والمثابرة، واتجها للجنوب في بداية جديدة وشاقة لرسالتهما، وقبل أن تغيب المدينة من خلفهما شعرا بهزة خفيفة، نظرا للوراء الغبار يتصاعد من موقع المعبد، علما أن الجنود حاولوا اختراقه فانهار، سالت دموعهما، تساءل «بلادس» بحزن:

-هل اختفت العلوم للأبد؟

هز «أفيلوس» رأسه وأجابه:

-إلى أجل مسمى...

-١١-

وساوس الشك

«شيماء» راقدة في سريرها تتصفح كتاب من مكتبة صغيرة في الغرفة، «هاجر» تقلب بصرها بين تصميم الغرفة ورقي الأثاث، تساءلت هامسة:

-ماذا درست صاحبة الفندق؟ اهتمامها بالتصميم من الواجهة والمدخل، ومكتبة في الغرفة، ساعة حائط بشكل أنيق مميز، قرص كريستال وعقرب الدقائق متصل بعقرب الساعات على شكل تروس ميكانيكية، تدور وتنطوي كلما تقارب عقرب الدقائق من عقرب الساعات وتنبسط بابتعاده تتحرك بهندسة عجيبة، كانت تشير إلى السابعة صباحًا، حدقت النظر فيها كأنها تذكرت شيئا هامًا، فقالت بقلق:

-«عصام» قال أننا سنستيقظ السابعة ولم يستيقظ، هل نذهب لإيقاظه؟

وضعت «شيماء» الكتاب على السرير ونظرت للساعة وكررت سؤالها:

-هل نذهب لإيقاظه؟

حركت كتفيها توحي أنها لا تعلم، خرجتا إلى غرفته، طرقتا الباب برفق لم يجب، انتظرتا لحظات ثم عادت لطرق الباب مرة أخرى، لا جديد، ازداد قلق «هاجر» فقالت:

-لا أظنه نائم إلى الآن، ترى هل خرج ونحن لا نعلم.

أجابتها «شيماء»:

-لديك نسخة من المفتاح أعطاها لك بالأمس، افتحي الباب لنطمئن.

ركضت «هاجر» لغرفتها، خطفت المفتاح سريعًا، فتحت الباب وجدت النافذة مفتوحة و«عصام» ملقى على الكرسي بملابس الأمس لم يبدلها، ملامح الهلع والخوف على وجهه كأنه لاقى الموت، ممدد على الكرسي، غارق في العرق، كأنه ركض آلاف الأميال بلا توقف، أنفاسه متزاحمة على صدره، اقتربت منه «هاجر» بفزع لتوقظه، لم يستيقظ، نثرت على وجهه قطرات ماء، نهض فزعًا، تنفستا الصعداء وجلستا بالقرب منه تسألانه عمّا حدث؟

أجابهما السكوت طويلًا، صبرتا حتى التقط أنفاسه وأجابهما بجمود يكلله الحزن:

-بحثت عن الطريق... أظن أني وجدته.

***

تركتاه في الغرفة بعدما اطمأنتا عليه، وعلامات من الحيرة والدهشة تسيطر عليهما مما قصه، جلس «عصام» على السرير بوهن راح يبدل ملابسه، سمع طرقات على الباب، وجد «طارقًا» يصوب فوهة مسدس مزود بكاتم للصوت على رأسه، دفعه للداخل وأغلق الباب، جلس على أحد المقاعد وأشار لـ«عصام» بالجلوس وهو يصوب السلاح تجاهه، مشى «عصام» ببطء تجاه المقعد المقابل له، اقترب منه وعاجله بضربة قدم في قبضته أطاحت بالسلاح، اصطدم بالأرض بقوة فخرجت رصاصة

أسقطت النجفة الكريستال فتفاداها بخفة وراح يكيل اللكمات على ذلك الرجل، قاومه وصد اللكمات ثم دفع «عصامًا» للخلف بقوة فاصطدم بالسرير، قفز «طارق» إلى المسدس وأخذه مرة أخرى ليستعيد سيطرته، قال وهو يطبق على أسنانه بصوت غاضب وأنفاس مضطربة:

-لو أتيت لقتلك لما أعطيتك فرصة للتفكير.

أجابه «عصام» بأنفاس متسارعة وقطرات عرق على وجهه:

-لما تتبعنا؟ وما الذي جعلك تسرق أشياءنا؟

قال وهو يقترب من المقعد ويجلس عليه:

-أريد إنقاذك.

صمت قليلًا وسط ذهول «عصام» الذي سأله:

-من أي شيء؟

همس:

-لمعرفة الإجابات لما يدور في عقلك اعتدل واجلس مكانك واسمعني جيدًا... ولا تقترب وإلا جعلت الرصاصة تخترق رأسك العنيد.

صمت قليلًا ثم أردف:

-يجب معرفة ما يجري حولك، يجب أن نتحدث.

شعر «عصام» بحيرة في نفسه، وازدادت تساؤلاته، أول لقاء كان يتطفل على حديثنا والمرة الثانية سرق المخطوطات وكاد أن ينهي مهمتنا بالفشل،

وهذه المرة يشهر سلاحه في وجهي، ورغم ذلك يخبرني أنه يريد التحدث معي، فيما سيتحدث غريب الأطوار هذا؟ أحس أنه يخفي شيئًا في كلامه يكاد أن يرى الظلام خلف ستائر مقلتيه الغائرتين، شعر بمحاولة سيطرة الرجل على جسده بقوة خفية، حصن نفسه وجلس على السرير، أشار للرجل ليتحدث، قص عليه أحداث وأشياء غريبة وسط دهشة «عصام» وذهوله، أنهى الرجل حديثه وترك لـ«عصام» قصاصة بردي صغيرة بها بعض الرموز ذات دلالة معينة ونهض من على مقعده قائلًا:

-لك مطلق الحرية في أن تقتنع بما قلته لك أو لا، إن كنت تسعى لطريق الحق كما تظن فلتحذر أن تخطئ الاختيار، صدقني فقد كنت مثلك في وقت سابق.

غادر وأغلق الباب خلفه، صادف خروجه خروج «هاجر» و«شيماء» من غرفتهما تأخرتا قليلًا في قلق، ثبت في مكانه دون الالتفات لهما، تراجعتا بهدوء لم يراهما، تأكدتا أنه شعر بهما، انتظرتا حتى استقل المصعد وهبط به، أسرعتا للباب وطرقتاه، انتفض «عصام» وأخذ القصاصة وخبأها في جيبه مع انفتاح الباب وجد «هاجر» و«شيماء» والقلق يحيط بهما، وبادرتاه بالسؤال:

-هل أنت بخير؟

-ما الذي أتى به هنا؟

السؤال نفسه يتردد ويدور في رأسه قبل سؤالهما، يشعر بخوف كبير يعصف بقلبه، يحدث نفسه: «هل من الممكن أن يتحول طريقي في مساعدة

البشر إلى نقيضه وأسبب الضرر بدلًا من المنفعة؟ هناك الكثير من الذين ذُكِروا في التاريخ وكانوا يطلبون الحق لكنهم ضلوا طريقهم، يجب أخذهم عبرة حتى لا نكون عبرة لمن بعدنا، ما هذا الرجل إلا مجرد شخص محتال يسعى لشيء آخر، تذكر قدرتهما على قراءة ما يفكر به فابتسم ونفض عن رأسه التساؤلات، بادرته «شيماء» سائلة:

-من هو؟

أجابها:

-عرف نفسه أنه باحث في كلية الآثار جامعة القاهرة.

أردفت «شيماء» بقلق:

-ما الذي حدث؟ وما سبب حالتك هذه؟ وماذا فعل هنا؟

نهض «عصام» ونفض أفكاره من رأسه وأجابهما:

-لا شيء. انتظراني في غرفتكما دقائق معدودة.

قالت «هاجر» وهي تنظر في عينيه:

-الكدمة أسفل عينك اليسرى، والنجفة المحطمة والابتسامة المصطنعة تقول هناك أشياء وليس شيئًا واحدًا.

مسح على الكدمة بأطراف أصابعه فاختفت فاندهش وتساءل عما يملكه من قوة، فحرك أصابعه تجاه النجفة فتجمعت جزيآتها وحلقت لتثبت في موضعها في السقف، فابتسم وقال وهو ينظر للمرآة:

-لا تقلقا لا يوجد شيء هام، انتظراني في الغرفة.

تبادلتا النظرات بغير اقتناع بكلماته، عادتا لغرفتهما والتساؤلات تعصف برأسيهما.

***

-١٢-

على أطراف المدينة

وقفوا على شاطئ البحر بالقرب من خليج أبي قير، ينظرون إلى موقع المدينة الغارقة تحت مياه البحر، لا يقطع صمتهم سوى تلاطم الأمواج مع صخور الشاطئ، شعرت «هاجر» ورفيقتها بدهشة من أفعال «عصام»، أوقف سيارة أجرة، تحدث مع السائق قليلا، ثم ذهب السائق بدون أن تعلما ما دار بينهما، تغير بعدها حاله، فبث في قلبيهما الرهبة، خوف، قلق، ثم فجأة طمأنينة وسكون! ما الذي يدور بعقله؟ نفضت «شيماء» أفكارها عن رأسها وهمست:

-هل هذا موقعها؟

أومأ «عصام» برأسه، التفت للجانب العمراني، بظلاله الكئيبة على الشاطئ، وأجابها:

-نعم. الدخول من الماء مجهد ويستهلك طاقتنا، يجب إيجاد مدخل آخر.

أخرجت «هاجر» جهازها اللوحي وظلت تعبث بأيقوناته حتى وصلت لموقع الخرائط ثم مسحت على شاشته بكفها، تحولت لطرق زرقاء، نظرت لهما هامسة:

-هناك مدخل آخر.

رمقها «عصام» بنظرة متسائلة، أعطته الجهاز، صمت قليلًا وأمعن النظر به، حدق في المباني يفحصها بسرعة، وأشار لهما:

-هيا بنا.

قالت «شيماء» وهم يسيرون بين المباني:

-منذ مجيء هذا الشخص وأنت متغير. هل حدث شيء مقلق؟

أشار لهما بالجلوس على مقهى بناصية أحد الشوارع المطلة على البحر متجاهلًا كلماتها، أعاد النظر للطرق الزرقاء وصورة قطع البردي المرسوم عليها الخريطة، وقال بجمود:

-سور المنارة هو جذع الشجرة، الشوارع الأفرع، الطريق إلى الصندوق المقدس لن يكون فوق الأرض.

تساءلت «شيماء» بدهشة:

-أتقصد أن هناك أنفاق توصل إليه؟

أومأ برأسه فعقبت «هاجر» بقلق:

-سيكون الأمر شاقًا.

هزّ رأسه نافيًا وأردف بتنهد:

-أيسر مما نتوقع.

أتى عامل المقهى وسألهم عن طلباتهم، طلبوا بعض المرطبات تناولوها، ونهض «عصام» وتبعتاه حتى منتصف الشارع، انحرف يمينًا

مسافة ١٠٠ مترًا، في نهاية الشارع منزل على الطراز القديم لا أثر للمطر عليه أو عوامل الرطوبة، على بابه لوحة قديمة كتب عليها «العقار للبيع»، تخطاه وانحرف في حارة مهجورة وهو يتفحص الأرض تحت قدميه، حتى وجد ذلك الغطاء المخصص لتصريف الأمطار، مغطى بالأتربة أزاحها عنه، رفعه بقوة، فكشف عن نفق كبير، مزود بدعامات صلبة كالدرج تساعد على الهبوط داخله، نزلت «هاجر» و«شيماء»، وتبعهم «عصام» بعدما سحب الغطاء ليخفي النفق.

تساءلت «شيماء»:

-ما كل هذه الأعمدة؟

أضافت «هاجر»:

-أتكون بداية المدينة؟ لماذا قواعدها بالأعلى ورؤوسها بالأسفل؟ كأنها مدينة قلبت رأسًا على عقب.

أجابهما وهو يحاول فتح صورة البردية على جهازه اللوحي:

-إنها أطراف «كانوبوس»، إنها قنوات مياه كانت تنقل المياه العذبة من النيل للإسكندرية، بنيت من أنقاض المعابد التي هدمها الرومان، لذا رؤوس الأعمدة بالأسفل وقواعدها بالأعلى.

يحاول تشغيل الجهاز اللوحي ليحدد طريق النفق والجهاز لا يستجيب، انبعث ضوؤه فجأة، ظهر معلمه أمامه، ابتسم «عصام»، وقال بثقة:

-فشلوا في صدنا بقوتهم، يحاولون تشتيت قوتنا.

أجابه معلمه بحزم:

-ستجد في نهاية النفق بابين متشابهين لحد التطابق إن كان يتبعك سيتحتم عليك المواجهة!

صمت قليلًا فتعلقت العيون به بقلق، فقال:

-أثق في قدرتكم على تخطي العقبات، وكلما تقترب من الهدف تزداد الصعوبة.

رحل وتركهم، القلق يتسلل لقلب «عصام»، قالت «شيماء» بصوت حاني:

-ما بك يا «عصام»؟ ماذا تخفي عنّا؟

أجابها:

-حينما كنّا في الفندق أخبرني «طارق» بأشياء غريبة أدخلت الشك في قلبي.

سألته «شيماء» بقلق:

-بما أخبرك؟

قص عليهما ما حدث في ذلك اليوم:

-جاء معلمي وجعلني أنظر لما حدث في الماضي للمكتبات.

أخبرهم كيف تم تدميرها وكيف تم إنقاذ ما تبقى من كتب ومخطوطات، وأين ذهبت الكتب، ورؤيته للصندوق، كأنه مع من أنقذ المخطوطات،

يداه لامست عبق العلم، وتغبرت بترابه، تلونت بحبر كلماته، تشبعت رئتاه برائحة التاريخ، عاش المعاناة التي مروا بها، رأى الطريق كأنه مرّ به حقًا، والخيانة سبب ضياع معظم العلوم وسرقتها.

ولما استيقظ أتى «طارق» وظنه جاء لسرقة المخطوطات مرة أخرى فتعاركا، أتته الفرصة لقتله تراجع وأخبره أنه يريد مساعدته، وأخبره أن طريقه خيانة للبشر، طريق لا يعلم نهايته، الصندوق سيكون سببًا في دمار الحضارة الأرضية كلها، وحينما سأله كيف عرف كل هذا؟ أخبره بحمله نفس المهمة في السابق، تراجع لما علم الغرض منها، نجاحها سيسبب الكثير من الخراب، لم يتركوه وحاولوا قتله ونجا كثيرًا، من ضربات البرق «سلاحهم المميت» كما دعاه، ترك له بردية تشبه خارطة الطريق التي يتبعونها، رحل وتركه في حيرة من أمره، صمت «عصام» فقالت «شيماء» بقلق:

-وأين البردية؟

هزّ رأسه وابتسم قائلًا:

-تركتها في سيارة الأجرة دون شعور السائق، إنها تدله علينا ويتبعنا بها.

سألته «هاجر»:

-هل أثر عليك؟

نظر لها بابتسامة وقال:

-على الرغم من وصفه الطريق حتى البابين، وحديثه عن صندوق ضخم، لم يعلم به أحد غيري، ظن أني أصدق ما قاله.

سألته «هاجر»:

-ما هدفه؟ هل يتتبعنا حتى يصل إلى الصندوق؟

أومأ برأسه وأخبرهما أن ما في هذا الصندوق كالسيف ذي الحدين الحماية أو الدمار، يسعى للوصول له ولن يمل من المحاولة، البردية كانت ترشده لتحركهم، لذا تخلص منها، إنه ليس بساذج، يجب أخذ الحذر منه والاستعداد لمجابهته بكل قواهم. أشار للنفق وتمتم:

-هيا لنصل للباب سريعًا.

انطلقوا سريعًا في النفق بين الأعمدة الضخمة وبرك المطر، بعد دقائق لمح «عصام» ضوءًا أحمرَ قانيًا منبعثًا من نهاية النفق، ركض إليه بحماس حتى وصله، وجده منبعثًا من باب ضخم مزركش بنقوش هيروغليفية قرأها بسلاسة وكانت تحوي هذه العبارة «جسر النجاة» نظر حوله لم يجد الباب الآخر، نظر إلى «هاجر» و«شيماء» فهزتا رأسيهما بدهشة، فعلم أنهما مثله لا تفقها ما حدث، أشار لهما بأخذ حذرهما، وقبل رفع قدمه ليتراجع سقط شعاع من رأس الباب على «عصام» تركه صريعًا على الأرض.

***

-١٣-

صورة السماء

تعيش المملكة عصر ازدهار وتقدم، بناة الأهرام يتحركون كالنحل لإنجاز عمل سيحمي مملكتهم عبر العصور، يعرفون أن أسماءهم لن يذكرها التاريخ، مؤمنون بخلود ذكر الأيدي التي بنت هذا الصرح العظيم. لم يتصور الفلاحون أن حياتهم ستتبدل، كل شيء يسير بالنمط المعتاد، المزارعون في حقولهم حتى الظهيرة، التجار في الأسواق، الصناع في مصانعهم، النساء بعضهن يساعدن في الأعمال وبعضهن تعد الطعام وتربين الأبناء، لا شيء كان ليكسر هذا التكرار اليومي إلا مواسم الأعياد، الاحتفالات بالحصاد والفيضان، حتى أتى صوت المنادي مع شروق الشمس، استيقظ أهل المملكة على ندائه باسم الملك، وحاجته للشباب الأشداء الأقوياء المخلصين، للتطوع لبناء الصرح الأعظم على مر العصور.

ليشهد التاريخ أن أبناء المملكة طبعوا صورة السماء على الأرض، مجرى النيل، امتداد درب التبانة من الجنوب للشمال، ظهور نجم النطاق من حزام أوريون بشكل لامع في منتصف خط الزوال قبل أن يعبره، المهندسون أخبروا الملك أن الطاقة المتجمعة حول النجم ستغير مجرى الحياة في المملكة، يجب استغلالها، للاستفادة من الطاقة وتوثيقًا لحدث عظيم لن يحدث إلا بعد آلاف السنين.

العائلات ترسل شبابها ليحظوا بشرف المشاركة في بناء مستقبل مملكتهم، وانطلقوا من كل حدب وصوب إلى المدارس الملحقة بالقصور والمعابد ليجتازوا الاختبارات التي وضعها الملك للمقبلين على هذا العمل، أهم الشروط «ألا يعاني من أي مرض أن يكون قوي البنيان مفتول العضلات، أن يكون حاضر الذهن شديد الذكاء سريع البديهة» الشباب يفرحون بالقبول، يخبرون أسرهم وعائلاتهم بسعادة، أعادت للأذهان مهرجانات الأعياد.

أعفى الملك عائلاتهم من الضرائب، وتكفل برعاية أسر العمال والإنفاق عليهم، بدأ قطع الصخور وإخراج الأحجار من الجنوب ونقلها بواسطة المراكب والعربات الخشبية التي تجرها الثيران، الشباب يصبون الماء على عجلاتها حتى لا تحترق من شدة الاحتكاك بسبب ضخامة حملها، استمر العمل وظهرت بشائره، في أحد الأيام كان الملك في زيارة لرؤية الإنجاز العظيم، بين الحشود شابان مفتولان العضلات، رسمت الشمس السمار على وجهيهما، يتساءلان عن الرجال المصلوبين في هذا اليوم المبارك، همس أحد الشابين وكان وجهه مستدير حليق الرأس، تقبع ندبة أسفل عينه اليمنى:

-«آني» من أولئك الرجال وما جرمهم ليصلبوا في هذا اليوم المبارك؟

نظر له رفيقه وأومأ برأسه وهمس:

-اهدأ يا «بديامون» ليس وقت أسئلتك الكثيرة.

ألح عليه فأردف:

-سمعت أن هؤلاء الرجال الخمسة وسادسهم الهارب حاولوا اغتيال الملك، يقال أنهم مقربين منه لذا أمر بتغطية وجوههم فلا تعرف هويتهم.

انقبض قلبه وسرت قشعريرة بجسده وتمتم وهو يطبق على أسنانه:

-عليهم اللعنة سولت لهم أنفسهم الخيانة، يستحقون أكثر من ذلك.

قطع حديثهم الأبواق تعلن وصول الملك وسمعا همس من خلفهما كمن يحدث نفسه:

-ما فشلنا فيه اليوم ننجزه غدًا، سيكون موتك عبرة لأتباعك أيها الملك... سيكون الصندوق لنا في أحد الأيام... سنخرج علومه نسيطر على العالم.

نظرا بسرعة لمصدر الصوت فوجداه رجل أسمر طويل القامة وقد غطى رأسه بقلنسوة سوداء، فشعر بنظراتهم فسحب العباءة على وجهه، فر هاربًا محدثًا فوضى في الحشود المتراصة، حاولا تتبعه أعاقتهما الفوضى، عادا لمكانهما في مقدمة الصفوف ليستمعا لحديث الملك، يبعث العزيمة في قلوب العمال، القلق من كلمات الرجل يسيطر عليهما.

شغل تفكيرهم حديث الملك عن أولئك اللصوص ومحاولة سرقة الصندوق المقدس، نظر «بديامون» إلى صديقه نظرة استفسار، أومأ برأسه وأشار له بيده ليصمت، علم أنه أمر بالغ الأهمية.

انتهت مراسم استقبال الملك وانفضت الحشود ولم يبقَ سوى بعض الحراس والقليل من المارة وجثث الخائنين الخمسة، ألقى «آني» و«بديامون» عليهم نظرة أخيرة وانصرفا.

في الغروب جلسا على شاطئ حابي المقدس وأمامهم أطباق من نبق وجميز وتين وإبريق نبيذ وسط نسمات الهواء العليلة، تناول «بديامون» حبة من تين ونظر ل«آني» تساءل:

-هلّا أخبرتني عن سر الصندوق المقدس؟

تناول «آني» بضع حبات نبق، أجابه:

-أخبرني والدي السر المقدس، لن أخبر غيرك به لأني أعلم مدى إخلاصك وصداقتك.

ابتسم «بديامون» وعقب:

-إن شئت أخبرتني أنا لا أغضب منك لأي سبب.

ابتسم وأجابه وهو يصب كأسًا من نبيذ:

-سأخبرك، أعرف فضولك الزائد، ليس مجرد سر شخصي إنه من أسرار المملكة لا يعلمه إلا المقربون من الكهنة ورؤساء المعابد لذلك حظيت به، انصت لي.

صمت قليلًا وهو يلوك حبة تين في فمه وأردف:

-في العصور السابقة حدثت حروب وخلافات كبيرة بين مملكتنا وبين قبائل من سكان الشرق، منذ عهد الملك «نعرمر» بذل قصارى جهده لتوحيد المملكة ونزع التمزق والتشتت منها، استطاعت جيوشه السيطرة على أرض كنعان، وما حولها من بلاد، على الرغم من قوته اعترف لخاصته بخوفه على مصير الحضارة التي أسسها، علم أن الممالك حية مثل الإنسان،

تمر بها فترات طفولة وضعف يتبعها شباب وقوة ثم عجز وموت، إن كان رجالها فطنة، ورَّثَت قوتها لأبنائها لتبقى قوية تحمي علومها وحضارتها، لم يتجاهل أن وقت الضعف آت لا محالة، مهما طالت قوتها واستمرت، طلب من مستشاريه طريقة تحفظ العلوم من أيدي الغرباء.

أتاه أحد الحكماء بفكرة حازت إعجابه وأثنى عليها، هي «الصندوق المقدس» الذي كان يحفظ به مخطوطات بها مفاتيح العلوم، بدونها تبقى العلوم كتبًا غامضة يكتنفها التخمين، ويصعب معرفة مضمونها، وتحفظ بها أسرار القوة، من يمتلكها يسيطر على البلاد.

كان «بديامون» ينصت وعلامات الدهشة على وجهه، وتمتم:

-هل تعني أن هناك من يعلم بذلك الصندوق، يريد أن يستولي عليه؟

أومأ برأسه مردفًا:

-يحاولون سرقته سعيًا لإيقاف مشروع الطاقة العظيم، يوجد داخل الصندوق ترنيمة «النجم» من يملكها يملك قوة لا تقهر، منذ إنشاء الصندوق سعى الحكماء لحفظ علومهم من السرقة وضعوا فيه مفاتيح ما خطوا من علوم، تفتح هذه المخطوطات أمام تسع حكماء مؤتمنين عليها، يدرسون ما بها للحكماء ليعلموها لطالبي العلم بمباركة الملك، ولا يطلع عليها أحد غير الحكماء التسعة. وكان فيه مخطوطات لبحوث عديدة في كيفية قيام مشروع الطاقة.

أومأ «بديامون» برأسه وهمس:

-لذا صلبهم في هذا الوقت بالتحديد ليروا فشلهم قبل الموت.

لاحظ «بديامون» علامات القلق على وجهه، فسأله بقلق:

-ما سبب القلق الذي ينطق به وجهك؟

تنهد ونظر إلى ماء النهر المتدفق، وقال:

-من كان يتحدث بحقد دفين في ذلك الحشد.

ابتسم «بديامون» وقال:

-لا تقلق لا ينجوا خائن بخيانته، يتأخر عقابه بعض الشيء ولا ينجو.

أومأ «آني» برأسه بابتسامة ونظرا للشرق والقمر يرتقي درج الأفق بثبات وثقة لا يمنع ظهوره سوى مرور سحب صغيرة يتخطاها ويطل باسمًا وهو يقول:

-سأروي تراب الأرض بالضياء رغم أنف السحب.

***

-١٤-

ترنيمة العودة

جلستا بجوار جسد «عصام» على الأرض تحدثانه بلا رد، تبكي «هاجر» بحرقة وتهز جسده:

-«عصام»، «عصام» انهض لا تتركني وحيدة يا أخي...

وضعت «شيماء» يدها على كتفها وهمست قائلة:

-استجمعي قواك يا رفيقتي، علينا حمايته وإنقاذه.

رمقتها «هاجر» بنظرة من بين دموعها وتبعتها بكلمات مختلطة بالبكاء:

-إنه أخي إنه كل ما أملك من الدنيا إنه الدنيا بذاتها.

وضعت رأسها على جسد أخيها، لا يتنفس، لا نبض في قلبه، تهزه إليها عساه يجيبها، أو يكون كابوسًا تستيقظ منه، دنت «شيماء» منها ونظرت لها بشفقة، لاطفتها وهي تمسك بوجهها الصغير برقة وتمسح عينيها الدامية من الدموع:

-يا صغيرتي تذكري أجسادنا ليست ملكنا، وهمّ الروح ثقيلًا على هذه الكتل من اللحم والدم، لا تقوى على التحمل، لا يجدر بنا الضعف والخطر قريب منا.

صمتت برهة ثم همست:

-هناك طريقة لاستدعاء الروح.

تلألأت عيناها بالأمل وهمست:

-أتعني عودته للحياة؟

ابتسمت «شيماء» بألم وقالت:

- لم يفارق الحياة قط، الروح ثقيلة تسعى للحرية تنتهز الصدمات التي لا يتحملها الجسد فتخرج من وعائه وتتحرر، لا نملك من أنفسنا شيء سوى الجسد وقليل من الذاكرة أما الروح ليست ملكنا، وما نملك من طاقة ثقيل عليها يزيد من نفورها.

نهضت «هاجر» من موضعها ومسحت الدموع عن عينيها وقالت بأمل ورجاء:

-أمن الممكن استدعاء الروح مرة أخرى؟ كيف؟

أومأت «شيماء» برأسها وهمست:

-ترنيمة العودة، هل تحفظينها؟

أومأت برأسها ومسحت دموعها وقالت:

-أحفظها.

جلستا القرفصاء أمام جسد «عصام» في بقعة مرتفعة قليلًا عمّا حولها من أرض النفق، كجزيرة خالية من المياه التي خلفتها مصارف الأمطار، تمتمتا بترانيم ابتهال للإله لكي يساعدهم همستا بخشوع:

-«مجدًا تتمجد أيها الإله العظيم في كل مكان، ملك الأبدية، سيد الخلود، الذي عبر في وجوده ملايين السنوات، إله الأرض سيد ملوك الشمال والجنوب، رب التاج الأبيض النبيل، خالق الملائكة والبشر قد تلقي عصا الصولجان والمذراة ورفعة الآباء المقدسين، ليكن قلبك راضيًا أنت السيد والحاكم في أبيدوس، لقد اكتسى العالم بالخضرة بفضلك، وجعلت قلب «أوزيريس» يرقد راضيًا في جبال «إمنت» بما جعلت «حورس» ظافرًا أمام قدرة «نب- إر- تشر» الذي قاد في ركبه ما كان وما صار ولم يكن بعد قد اجتمع في اسمه «تا- حر- ستا- نف» لقد انجذب ظافرًا وراء الملكة «ماعت» على امتداد الأرض باسمه «سِكِر»، إنه فائق العظمة، فائق المهابة باسمه «أوزوريس» إنه يظل إلى الأبد باسمه «أون- نفر»

الجلال لك أيا ملك الملوك، سيد السادة، أمير الأمراء، لقد حكمت العالم و«إخرت».

شهق «عصام» كالناجي من الغرق، ابتسمت «هاجر» ولم تتوقف، سمعتا صوت أقدام تأتي من نهاية النفق تبادلتا النظرات بقلق وأكملتا ترانيمهما:

«لقد اخترقت السموات. لقد شققت الأفق. لقد قطعت الأرض متتبعًا خطوات أقدامه. تلبثني «الخو» العظيم القادر وحملني بعيدًا لأني قد زودت بكلماته السحرية لملايين من السنوات»

أصوات الأقدام تقترب، «عصام» يحرك شفتيه مرددًا الترانيم معهما بوهن:

«إنني أطعم بفمي وأمضغ بفكي إنني أنا خادم الإله عسى أن تمنح لي هناك هذه الأشياء على الدوام دون نقص أو فساد.

وقفت «هاجر» و«شيماء» أشهر عليهما سيف مزخرف بالرموز الهيروغليفية يشع بالأزرق القاتم، وقفتا أمام جسد «عصام» تحميانه، وهو مسجى على الأرض يحرك شفتيه بالترانيم، ضوء الشعاع الأزرق يكشف عن حامله، نظرتا له بغضب وقالت «هاجر»:

-أهذا أنت؟!

****

-١٥-

عين حورس

لحظات هادئة صافية، قُبيل شروق شمس الحياة، يملأ النور السماء، يحرك في القلب مشاعر الأمل، يوقد مشاعل التفاؤل، لتقودنا للتحليق في خيالات الحب والعشق، تهمس في قلوبنا هناك فرص جديدة، يجب استغلالها على أكمل وجه، نمارس فيها طقوس الفرح والحب وبعضًا من الجنون، تهمس أن القلب نابض حالم، يقود الجسد لطريق حلمه إلى النهاية، هذه اللحظات... مجرد لحظات تتكرر كل يوم، تحمل الكثير من الأمل، فقط لمن ينتظرها ويلقاها بقلب خصب.

كانت عادة هذا الشاب حنطي البشرة سَبق صياح الديكة وحلول الفجر وبزوغ الشعاع الأول للشمس ليحظى بنسمات النيل العليلة على شاطئ «أبيدوس»، تجعله يشعر ببرودة الحياة تسري في جسده قوي البنيان مفتول العضلات، يحظى برؤية قرص الشمس الذهبي قبل أن يرسل الأشعة فتحجبه عن الرؤية، يظهر كقمر ذهبي ممزوج بحمرة، كوكبًا منيرًا، ينافس جمال القمر كأنه يقول ممازحًا: «أنا أصل الجمال والضياء يا قمري فلا تغتر».

أخرجه من تفكيره «هويا» وضع يده على كتفه وقال:

-هذا طقسك المفضل ولا تحب مقاطعتك فيه، أما اليوم مختلفًا للغاية.

نظر له «هونيفر» بقلق وهو يلقي بقطع خبز صغيرة للأسماك في النهر أجابه:

-اشتد الصراع بين «ست» و «حورس» ولا يعلم مصيره أحد، وُلِدْنا وهو قائم تخفت ناره وتشتعل ويحكي أجدادنا أنهم لا يعرفون بدايته ولا يتوقعون نهايته.

أضاف «هويا»:

-مصير المملكة مرتبط بالصراع بشكل كلي، فمنذ اغتصب «ست» السلطة وقتل أخيه «أوزوريس» وشتت جثته وفرض سيطرته على مدائن المملكة، عمَّ الفساد جميع أنحائها وتدهورت الأوضاع، وازداد الوضع سوءًا باستخدامه السحر وتسخير الصحراء وعواصفها لاستخدامها في حروبه، نال غضبه وسخطه من جميع أطياف الشعب إلا قلة من أصحاب المنافع، يتلونون مع الجميع بما يتماشى مع مصالحهم، هذه الفئة تضر المملكة بكل فعل وكلمة.

أخذ «هونيفر» نفس عميق وقال بابتسامة:

-اليوم مختلف للغاية، أرى بوارق الأمل آتية لتضيء المملكة قريبًا، سنرى النزال اليوم يا صديقي.

هز رأسه قائلًا:

-سيكون كالسابق منذ أكثر من ثمانين سنة من قبل أن نأتي لكهف الحياة الخنيق ولا جديد.

وضع «هونيفر» يده على كتف «هويا» وقال بحزم:

-لا تجعل اليأس يسلبك الأمل الذي نحيا به.

ابتسم وقبض بيده على يد صديقه وتنهد بصمت. مر الوقت تعامد قرص الشمس ساحة القتال، ارتفعت الأبواق تعلن النزال الأخير جلس حول القاعة فوق درج مرتفع يكشف المتصارعين، قضاة المحاكمة وعلى مقربة منهم «إيزيس» و«نفتيس» يتابعان بقلق جلي على وجهيهما مثل بقية الشعب، تبارزا بالسيوف وكان «ست» يرتدي قناعه المفضل برأس حيوان ابن آوى بفكه الطويل وأذنين على شكل هرمين مقلوبين، خلفه عاصفة من رمال صغيرة تدور حوله تشتت انتباه «حورس» بقناعه رأس الصقر، الساحة في «أبيدوس» غرب النيل بميلين، قاعة بها ستة وثلاثين عامودًا في ثلاث صفوف، الصفين الأولين كعيدان البردي وتاجها الزهري، والصف الأخير كجذوع الشجر يعلوها قمة مربعة. قفز «حورس» عاليًا هبط بضربات متتالية على «ست» هرب وهو يصد أكثرها، ويحتمي بالأعمدة، كاد أن يتغلب عليه «حورس» فظهرت حوله عاصفة رملية، منعت القضاة ومن يشاهدون القتال رؤية «ست»، «حورس» لم يعد يرى خصمه.

توقفت العاصفة تفاجأ «حورس» بسيف عمه «ست» يكاد يطيح برأسه، ابتعد برشاقة فأصاب السيف عينه اليسرى وفقأها، تفجرت الدماء منها بغزارة، الناس أيديهم على قلوبهم قلقًا على «حورس»، ارتفعت الشهقات الخائفة، والهمهمات بين الجموع، استغل «ست» إصابته

وسيلان الدماء لصالحه، فكال الضربات القاتلة بسيفه السحري على ابن أخيه، مطالبه بالعرش، صد «حورس» الضربات، إلا الأخيرة كانت قوية أسقطته أرضًا، فنظر له «ست» بغضب ورفع يده بسيفه والدرع وصاح بقوة وغضب أرعب الجميع، مع ظهور عاصفة أحاطت بطالب الثأر لأبيه وعرشه، رفع «ست» سيفه عاليًا وخرج منه شعاع أزرق قاتم وصاح وهو يهوي به على حورس.

صده درع فضي كضياء القمر، لامس السيف فصدر عن تلامسهما صليل مزعج وتطاير للنيران أرجعت «ست» للخلف من قوتها، انقشعت العاصفة عن «حورس» استعاد عافيته، توقفت عينه عن النزيف، قبض على سيفه بقوة، وهو يفكر فيما منع السيف من النيل منه، نفض الأفكار عن رأسه ووجه ضرباته لقاتل أبيه، وتبعه خلف الأعمدة وهو يصد بقوة وصلابة، فقد قدرته في السيطرة على عاصفة الصحراء، كأن الساحة محاطة بهالة فضية تسلبه قوته وتزيد قوة «حورس».

سيطر «حورس» على ساحة القتال، ضعفت قدرة «ست» على صد الضربات، هوى عليه «حورس» بضربة كسرت سيفه، فرفع «حورس» سيفه فصدر عنه شعاع فضي وصاح بقوة وقفز للأعلى بفخر، عاجله «ست» بخنجر في قدمه، كاد أن يسقطه، تمالك قوته وهوى بسيفه على قلب «ست».

تركه يحتضر ورفع سيفه معلنًا نصره، لم يلحظ نظر «ست» إلى الجموع السعيدة بخسارته بحق، ووقع بصره على أحد الرجال، رأى دموعه

الحزينة فاستغل ما تبقى من سحر وسيطر على جسده، فتردد في عقله «خادمك المخلص يفديك بحياته وروحه» خرج من فمه دخان أسود كطائر صغير لم ينتبه له أحد وتوجه مباشرة للخادم.

جفف عينيه من بقايا الدموع وهمس بحقد غير دفين:

-فلتظن أنك انتصرت أيها الجبان الصغير، لولا سحر «إيزيس» ما استطعت هزيمتي أبدًا.

انتشرت السعادة بين شعب المملكة، نظرت «إيزيس» لـ«حورس» نظرات فخر، ركع أمامها قائلًا:

-بدونك ما انتصرت.

أجابته بحنانها المعتاد:

-لم أرضى هزيمتك بسحره الأسود، الآن أنت «حامي أبيه» وملك جدير بعرش المملكة العظيم.

نظرا لجسد «ست» المضرج بدمائه، ومسحت عين «حورس» برفق، لتتحول لجوهرة متلألئة.

وفي مكان قريب من القاعة نظر «هونيفر» لـ«هويا» بسعادة وهمس له:

-ألم أقل اليوم مختلف! ها هي بوارق الأمل.

نفخت الأبواق معلنة انتصار «حورس» قرأ كهنة المعبد الترانيم الخاصة بالانتصار، شاركهم الشعب في تلاوتها بعدما قامت «إيزيس» و«نفتيس» بجمع جسد «أوزوريس» وحنطه «أنوبيس» وارتفعت الترانيم:

«مرحى أيتها الروح. أنت القوة العظيمة القادرة لقد مررت عبر «دوات». لقد رأيت أبي «أوزيريس» لقد بددت حلكة الليل.

إني محبُوبه. أتيت ونظرت أبي المقدس وطعنت «ست» فعلت كل الطقوس التي يحتاجها أبي المقدس «أوزيريس»

فتحت الدروب في السماء وعلى الأرض. إني الابن الذي يحب أبيه «أوزيريس»

دعمت ما يحتاجه وجودي.

مرحى يا إلهي. لقد شققت لي طريقًا. أنا «أوزيريس» المنتصر.»

***

-١٦-

نهاية «ست»

يردد «عصام» الترنيمة، يرفع صوته بها، رفع الرجل سيفه المشع بالأزرق كشف رغم خفوته عن وجهه الأسمر والشعر المنحسر عن مقدمة رأسه، فنظرتا له بغضب وقالت «هاجر»:

-أهذا أنت؟!

ابتسم بمكر وتردد صوت غريب مزعج في عقولهم:

-نعم أنا. ولا تعلمون من أنا.

أجابته «شيماء» بغضب:

-كشفنا هويتك، منذ زمن.

قهقه بصوت مخيف وظهرت خلفه عاصفة رملية تتسع وهو يقول:

-حتى أنكم لم تتعرفوا عليّ إلى الآن.

صمت قليلًا ثم تردد في عقولهم صياحه المزعج كالعواء:

-أنا الخادم المخلص حامل روح سيد الأكوان «ست» أنا بعثه الجديد الحي الذي لم يفنى ولن يموت.

صاحبت كلماته ازدياد العاصفة لتخفي النفق خلفه وأحاطت بهم من كل جانب، تدور بسرعة أفقدتهم القدرة على الرؤية، ولما توقفت وجدوا

أنفسهم خارج النفق، صحراء جرداء تنتشر فيها الهياكل العظمية لحيوانات كثيرة وهياكل بشرية، هياكل لحيوانات لم يسمعوا عنها إلا في الأساطير، تحركت مشاعر الخوف والقلق عندهما، فبسطتا أيديهما بحركة لا إرادية ليتشكل سيف لكل واحدة منهما، وتبدلت ملابسهما لزي وأقنعة «إيزيس» و«نفتيس» ألقتا نظرة إلى «عصام» وهو يرفع صوته بالترنيمة:

-«أتيت ونظرت أبي المقدس وطعنت «ست» لقد فعلت كل الطقوس التي يحتاجها أبي المقدس «أوزيريس»

تزايد الحقد على وجه الخادم، تبدلت ثيابه لزي المحاربين القدماء وأرتدى قناع سيده «ست» رفع سيفه ليهوي به على قلب «عصام» صدّاه سيفا المحاربتين، دفعتاه للخلف بقوة لم يتوقعها، تراجع للخلف وقهقه بسخرية وغضب، العواصف الرملية تعمي أبصارهما، تحولت الصحراء لقاعة كقاعات معبد سيتي بأبيدوس، بأعمدتها الستة والثلاثين في الصفوف الثلاثة، عاد يسدد لهما الضربات المتتالية كألسنة البرق، استطاعتا صد جميعها، تدركان أنه أقوى منهما بكثير، صياحه المدوي في عقولهم يضعف قواهم، طرحهما أرضًا بضربة واحدة، ورفع سيفه ليهوي به على «عصام»، توقف السيف على بعد قبضة من جسده ففتح عينيه، أشعت باللون الفضي وخرجت من جسده طاقة دفعت خادم «ست» للتراجع للخلف بقوة كادت أن تسقطه.

نهض «عصام» هزّ رأسه بقوة فتحول وجهه لرأس الصقر وتمزقت ثيابه لتكشف عن تنورة باللونين الأصفر والأبيض، وخلف ظهره

جناحان ضخمان، رفرف بهما بقوة وهو يصيح بصوت مخيف للخادم : «أتيت ونظرت أبي المقدس وطعنت «ست» الآن أكمل الطقوس التي يحتاجها أبي المقدس «أوزيريس»

زمجر الخادم بغضب وهو يقول:

-سأسحقك وأمزق روحك كما فعلت بـ«أوزوريس» سأستعيد الصندوق، سأعيد العرش، سأنتقم من مساعديك والفرحين بانتصارك الزائف.

صاح «حورس» بقوة نبت الصحراء، وتحول صفا الأعمدة الأولين لعيدان بردي مزهرة، ونمت جذور الأشجار في الصف الأخير، تفجرت عيون الماء من الأرض تسكن الرمال، قال والغضب يرتسم على وجهه:

-لم يعد لك وجود هنا، تبدلت الأرض وتغير البشر لا مكان لحكمك الظالم في هذا الزمان، أمّا الصندوق لن تستطيع سرقته ما دمت أحميه، سيصل للأحفاد يأخذون منه العلوم لتعيد حضارتهم بسلام كما كانت، وتنتهي مخطوطات السيطرة على الحكم.

قهقه الخادم بسخرية:

-لن يأخذ العلوم غيري، سأعود لأحكم وأسيطر من جديد...

لم يمهله «حورس» رفرف بقوة وتحولت قدماه لمخالب حاده وأنقض عليه بمخالبه، ألقاه لأعلى وتركه ليهوي على الأرض ليسمع تكسر عظامه، تحامل على نفسه محاولًا النهوض، انقض «حورس» عليه فلوّح بسيفه فأصابه في صدره، سقط على الأرض وتدحرج بقوة، خضار

الشجر يصفر وتتساقط الأوراق، محدثة عواصف كعواصف الخريف، الرمال تحاول تغطية كل شيء حولهم، ركضت إليه «إيزيس» و«نفتيس» لتحمياه لكنهما ابتعدتا بإشارة منه، تقدم الخادم إليه، يعرج بسبب كسر في عظام قدمه، نهض «حورس» لتتخضر الأشجار بنهوضه، تجاهل إصابته وانقض عليه مرة أخرى، رفع الخادم يده كمخلب المفترسات أصابه في قدمه أسقطه ثانيةً.

انقض عليه بسيفه فتفاداه برشاقة وظهر حول «حورس» هالة من الضوء الفضي منعته من الوصول إليه، الطاقة الفضية تسري بشكل ملحوظ حول جسد «حورس» استعاد بها قوته.

رمق الخادم «إيزيس» بغضب وهي تستخدم سحرها لحماية «حورس»، اشتعل سيفه وخرج منه ضوء أزرق صدته «نفتيس» بحبل مفتول من نور أبيض، غير مسار الضوء وتبدد في الفراغ، رفرف «حورس» بقوة وهوى عليه بطعنة قاتلة تركته جثة هامدة، صاح «حورس» وألقى نظرة إلى «إيزيس» تردد التعاويذ لتحميه بضوء القمر الفضي، «نفتيس» تقف بجوارها تحميها، وهي تطوح حبل النور بيدها، ابتسم وتذكر حلول روح «ست» في خادمه، دنا من الجسد الملقى على الأرض، شق صدره، انتزع قلبه المليء بالحقد والشرور، حلق به عاليًا ثم ألقاه وسلط أشعته الفضية عليه فسحقته حتى صار كدخان أسود تبدد في الهواء.

همست «إيزيس» والإرهاق يفيض من وجهها:

-هل انتهى الشر؟

أجابها وعلى وجهه علامات التعب:

-لا يختفي الشر من على الأرض موطن المتضادات، الخير والشر صراع أبدي، ينتصر أحدهما فيطغى على الآخر، يعود المغلوب لينتصر، الآن تشتت إلى أجل غير معلوم.

دنى منهما بشموخ، رفع يداه ووضعهما على رأسيهما لتختفي قاعة المعبد، فتحتا أعينهما فظهرت جدران النفق أمامهما، وعاد «عصام» كما يعرفانه، نهضت «هاجر» بسعادة واحتضنته، سالت دموعها وهي تقول:

-أخي الحمد لله أنك عدت.

ابتسم وقال:

-عدت يا صغيرتي.

أضافت «شيماء» بسعادة:

-لكنك أقلقتنا.

قطع حديثهم اختفاء الباب وسطع آخر باللون الفضي وظهرت النقوش والترانيم الهيروغليفية عليه، اقترب منهم ظل رجل برأس طائر، احنوا رؤوسهم إجلالاً، لتظهر ابتسامة على وجهه لا تدري كيف ظهرت وكيف تشكلت إلا أنها كانت واضحة للغاية، دوت كلماته في عقولهم وابتسامته على وجهه:

-تخلصتم من الخطر بقوتكم، في نهاية الباب الذي تمر منه يوجد الصندوق المقدس إنه عهدتكم لتخرجوا علومه إلى النور، ليقرأ أحفادنا

رسائلنا ووصايانا على جدران المقابر والمعابد والمنازل والأهرام، أخبرهم أننا تركنا لهم الإرث العظيم الذي لم يترك مثله أحد، لينعموا بعلومه ويبنون حضارتهم، ويقودون العالم.

أنهى حديثه واستدار ناحية الباب، ودوت كلمته الأخيرة:

-مفتاح العودة يا بني.

سار بثقة حتى اختفى في ضوء الممر.

***

-١٧-

السرداب

إيزيس أيتها الملاك المُخَلِص، أيا رمز المحبة والوفاء، يا من ترحلت في أرجاء الأرض لتجمع أشلاء زوجها الممزق بيد الشر والخيانة، لتقوم بالمهمة الأخيرة له وتودعه على أمل اللقاء في العالم الآخر، «إيزيس» يا قلب الأم الحنون، حمت صغيرها «حورس» من كل شر يحيط به، أيتها المحاربة المدافعة عن فلذة قلبها في صراعه الأبدي، أيتها الثائرة ضد الشر، رمز المقاومة العظيمة وقائدة الثورة الأولى ضد دعاة الظلام، اتصفت بالدهاء والحكمة، رمز الأمل، بيدك مفاتح الحياة وأسبابها، ها هن بناتك يتخذنك القدوة والمثل الأعلى، ها هن في وقت الشدة يقفن ثابتات كالقلاع الحصينة، يحاربن بجوار أبنائك ظهرًا لظهر، يقاومن الظلم يثرن على الشر، لا يخنعن لقوى الظلام.

ها هن مقاتلاتك وارثات جمالك وقوتك، يحملن جيناتك العظيمة، وصفاتك الجليلة، وملامح وجهك الرقيقة، يخفين معاصمهن الفولاذية في لمساتهن الرقيقة للشدة والمصاعب، حينما يتحول النور والضياء إلى ليل وظلام، يتحول جمال وجوههن لسمات القوة والعزيمة، يستللن السيوف من رموشهن الكحيلة، يغزلن الدروع من سلاسل شعرهن الليلي، ويقفن كالجبال على الأرض يغازلن بجباههن السماء، «إيزيس» ها هن بناتك حماة إرثك العظيم مقاتلات متخفيات وراء أستار الجمال.

نظر «عصام» إلى «هاجر» و«شيماء» وتذكر ما بذلتاه في معركته، وكيف ساعدتاه في النصر، هما شريكاته في النصر بل صاحبات النصر.

نظرتا بدهشة لنظراته الباسمة، قالت «شيماء» بابتسامة:

-فيما شردت؟

انتبه لنظراتهن وكلمات «شيماء» فابتسم وقال:

-لا شيء، هيا بنا.

مضوا في طريقهم، تساءلت «هاجر»:

-هل تعرف الطريق؟

تذكر «بلادس» و«أفيلوس» بعدما وضعا المخطوطات الهامة في السرداب السري للمكتبة بجوار الصندوق المقدس، أجابها بابتسامة:

-أعرفها جيدًا

وصل إلى البابين واختار أحدهما واختفى الآخر كدخان، ساروا جميعًا ما يقارب نصف ميل بداخل الممر تجاه الشمال، حتى لاح أمامهم النفق المظلم، أضاءه بمصباح محمول ساروا حتى نهايته، إلى أن وجدوا بابًا حجريًّا فدفعه «عصام» لينفتح ببطء، الأحجار المضيئة باقية في أماكنها كما رآها مع «أفيلوس» و«بلادس» غزا ضوؤها النفق وانعكس على الممر خلفهم، شعروا برهبة من الهياكل البشرية فاغرة الفكوك، علموا أنهم حاولوا الوصول للصندوق، ما مروا به من رعب قبل أن يهلكوا ترك أثره على هياكلهم، تجاوزوا الممر ومن خلفه الباب أقل من المتر عرضًا والمتر ونصف طولًا دخلوا فأغلق خلفهم بقوة مهيبة جعلتهم يلتفتوا إليه برعب

وقلق، طمأنهم «عصام»، ظهر أمامهما الأبواب الثلاثة من الرخام المنحوتة بشكل منمق، وعلى صفحاتهم نقوش هيروغليفية.

تذكر الأعمدة، نظر بالقرب من الأبواب وجدهم ثلاثة، في كل عمود مكعب فارغ في وسطه صورة، اقترب من الجدار وبدأ يقرأ الرسالة أعلى الباب ويطابق الوصف على شكل الطائر على العمود، تأكد من صحة مطابقته، فحرك الطائر على العمود الأيمن حركتان لليسار وحركة للأعلى ثم حركة لليمين ثم حركتان للأسفل، أصدر الباب صوتًا صاخبًا، نظرت له «شيماء» و«هاجر» وهمست «هاجر» بابتسامة:

-العلوم آمنة.

دخلوا الباب ليجدوا الأبواب أربعة من نحاس بدون نقوش، فقالت «شيماء» وهي تشير للباب المغلق خلفهم:

-هذا يتوقف على قوة ذاكرتك، وإلا كان مصيرنا مصيرهم.

أومأ متمتمًا:

-لا تقلقي المدخل الثاني عدد الحركات فتح الباب الأول يطرح منه الأبواب التي لم تفتح.

هزت «هاجر» رأسها هامسة:

-لا أفهم ما تعنيه.

صمت «عصام» وأغمض عينيه استرجع ما رآه من أعماق الذاكرة، همس:

-إن بدأت الحركات لليسار، يكون المدخل الثاني على اليمين.

قالت «شيماء» وهي تقترب من الباب الرابع على اليمين:

-أذًا هو ذا.

أخذت بمقبضه الدائري ولفته نصف دائرة فانفتح فاستبشرت وجوههم بالابتسامة، قالت هاجر:

-يبدو أن هناك أكثر من مفتاح للأبواب.

أومأ وأجابها:

-تسعة ألغاز مختلفة يحمل واحدًا منها كل حكيم من الحكماء التسعة، هم من نقلوا الصندوق من أبيدوس إلى «كانوبوس» بعد العاصفة.

دخلوا السرداب الضخم الذي جمع فيه «بلادس» و«أفيلوس» كل المخطوطات الفريدة ونسخ من المخطوطات حرقت في المكتبة الكبرى بجوار الصندوق المقدس.

تنقلت «شيماء» ببطء بين المخطوطات تسحب يدها بخفة بين رف وآخر، «هاجر» تمسك المخطوطات بحذر وتقربها من أنفها بتعجب وتقول في نفسها «كيف تظل المخطوطات كل ذلك العمر دون أن تتآكل أو تفسدها الحشرات» وجدت «عصام» يقول وهو ينظر بشغف للصندوق المقدس:

-لولا بخور شجرة «إله الشمس» لهاجمتها الحشرات وأهلكتها، وفسد الهواء ولقينا حتفنا بمجرد استنشاقه.

نظرت له «هاجر» بدهشة وهمست «شيماء» بتعجب:

-هل سمعتني وأنا أفكر

فنظرت «هاجر» إليها وأضافت:

-وهذا بالضبط الذي أفكر فيه.

ابتسم وأجابها:

-سمعتُ «بلادس» و«أفيلوس» يتحدثان عن ذلك النوع العجيب من الأشجار، إن احترقت أغصانها في مكان تبقى رائحتها لسنين عديدة، وتظل كحصن ضد الحشرات والتآكل الذي يحدث بفعل العوامل الطبيعية، وتحافظ على الهواء حتى لا يفسد.

تساءلت «هاجر»:

-ماذا سنفعل الآن؟

أجابها وهو يفتح الصندوق:

-العودة بذلك الصندوق المقدس والعمل على نشر العلوم التي يحتويها.

نظروا إلى الصندوق، يحوي أكثر من ثلاثة آلاف مخطوطة من ورق البردي، وبه صندوق صغير، أخذه «عصام» وفتحه بحذر، فأشعت السرداب بضوء أبيض كاد أن يعمي عيونهم، وسقط الصندوق من يده، سقطوا على الأرض فاقدي الوعي، مر الوقت عليهم وهم رقود، فتح «عصام» عينيه وشعر بألم يعصف برأسه، تمالك نفسه وجلس، نظر إلى «هاجر» و«شيماء» وهما تحاولان النهوض، اقترب منهما وساعدهما، همست «هاجر» بألم:

-ما هذا؟ ما الذي حدث؟

أجابها:

-الطاقة التي يسعى الجميع لامتلاكها، القوة المنشودة التي جعلت الغرب ينبش قبور أجدادنا بحثًا عنها، إنها السر...

تساءلت «شيماء»:

-أين ذهبت؟ هل فقدناها؟

بسط يده ونظر لها، حرك أصابعه تجاه أحد المخطوطات فارتفعت، وأردف:

-هي في أجسادنا الآن، نحن المختارون لها، ستظل كامنة في قلوبنا حتى نجد مفتاح العودة وتفتح لنا على مصارعها.

ساد الصمت طويلا، فقالت «شيماء»:

-كيف سنخرج المخطوطات من هنا؟

أجابها:

-المنزل المعروض للبيع.

تساءلت «هاجر»:

-أي منزل.

أجابها وعاد إلى النفق، اتجه ناحية الدرجات الحديدية التي نزل منها «أفيلوس» و«بلادس» وصعد وحاول رفع الغطاء الذي يغلق فوهة النفق، لكنها كانت ثقيلة للغاية لم تنفتح، سلط ضوء أزرق نسجه بين كفيه إليها، وسط تساؤل ودهشة من «شيماء» و«هاجر» وما أن لمس الضوء الفوهة حتى سقط الغطاء محدثًا ضجة كبيرة وغبارًا، انقشع فصعد وتبعتاه، وجدوا أنهم في ممر كأنبوب خراساني، ساروا ليصلوا لدرجات تتجه لأعلى كأنه مخرج قبو، تفاجؤوا أنهم في منزل يبدو أنه من العصور القديمة، على الرغم من رقي الأثاث وجماله، الغرف مجهزة بدواليب

زجاجية كالمكتبات، اقتربت «هاجر» من أحد الطاولات عليها ورقة مطوية ومجموعة مفاتيح، فتحت الورقة فألجمتها الدهشة، همست:

-انظرا هذا العقد يرجع لـ «عصام».

نظرت «شيماء» باستغراب، قالت:

-هذا البيت ملك لك! إذن المطلوب نقل المخطوطات وحفظها فيه.

أومأ برأسه وقال:

-أظن ذلك.

استمروا في العمل المتواصل يومين دون الشعور بالوقت، انتهوا من نقل المخطوطات للدواليب أغلقوا أقفالها، اهتز الجهاز اللوحي في حقيبة «هاجر»، كأنه يعيد البرمجة الذاتية، ثم ظهرت على شاشته تسعة مربعات، كل مربع شاشة عرض لغرفة من المنزل، أشارت ل«عصام» متسائلة فقال:

-إنه نظام مراقبة متكامل.

نظرت لهما «شيماء» وتساءلت:

-ماذا بعد؟

أجابها:

-العودة للجنوب.

لما خرجوا لاحظوا أن الشمس تظهر في الأفق الغربي غابت عنهم المدة التي مرت عليهم.

توجه «عصام» لأحد باعة الجرائد، التاريخ يقول مر يومان منذ مغادرة الفندق، استقلوا سيارة أجرة وعادوا إلى الفندق ليأخذوا بقية أمتعتهم

وهواتفهم التي تركوها حتى لا يتتبعهم أحد، ثم اتجهوا للسفينة وأكملوا الرحلة بأمان وكان الشيء الأكثر أمانًا وسعادة لهم هو سماع صوت الرعد ورؤية البرق وهو يقبل وجه البحر.

***

بعد رحلة شاقة وغريبة رجعوا إلى قريتهم، يتساءلون فيما بينهم، «هل انتهت المهمة أم ينتظرنا شيء آخر؟» يجيبهما «عصام»، «سننتظر إشارة أو رسالة، أو أجد مفتاح العودة»، انتظم في عمله، الجميع مبهور بمعرفته فك الرموز، رغم محاولته ألا يظهر ما يملك من معرفة، مر أكثر من أسبوع في إعادة استكشاف المقبرة «٤٥٥»، في وادي الملوك، وقف محفزًا للعمال على الجد، وسط الغبار العالق في شعاع الشمس الساقط داخل المقبرة، نظر بدهشة إلى شيء مشع بنور أخضر، يؤلم العينين، أخذها فإذا هي قلادة مزخرفة ببعض الحروف الهيروغليفية، منشقة لنصفين، كلما حاول فتحها آلم الضوء عينيه، أغلقها ووضعها في جيب سترته، وحدث نفسه متسائلًا:

-هل هي مفتاح العودة؟

أخرجه من شروده صوت من خلفه بالإنجليزية:

-ماذا تفعل يا «عصام»؟ وماذا خبأت في سترتك؟

انتفض ونظر خلفه ليجد السيد «آلان» ذلك البدين قصير القامة من الفريق السويسري لكشف المقبرة، وجهه محتقنًا كالعادة وهو ينظر لسترة «عصام»، أجابه بإنجليزية متلعثمة وهو يفكر كيف يخرج من مشكلته:

-لا شيء. لم أضع شيئًا فيها.

مد يده في السترة، جحظت عيناه وتصبب جبينه عرقًا، ودقات قلبه تسمع من على بعد أميال، حاول النطق ببعض الكلمات، دون جدوى فآثر الصمت، حاول مرة أخرى فقاطعه صوت السيد «آلان» بغضب، وسحب يده بقوة، وهو يصرخ في وجهه:

-عليك اللعنة يا «عصام»، عليك اللعنة أيها الأحمق ماذا تظن أنك فاعل أيها اللعين؟

لم ينبث «عصام» بكلمة واحدة، أعين جميع العمال تجاههم بفضول، ازدادت ضربات قلبه وأحمر وجهه، مع استمرار صوت السيد «آلان» باللعنات والتوبيخ وتقبيل يده كأنها لسعت بنار جهنم، قال له بصوت غاضب:

-إذا كنت تريد التدخين فلتخرج خارج المقبرة، وإن كنت تريد إطفاء سيجارة المكان المناسب خارج المقبرة وليس في ملابسك أيها الأحمق.

اندهش مما قاله وسط ضحكات العمال، نظر لجيب سترته فوجد الدخان يتصاعد منها، خلعها وخرج من المقبرة مسرعًا ليطفئها، دارت الأسئلة في عقله، «كيف حدث ذلك؟ وأين ذهبت القلادة؟ يا له من حلم عجيب! هل أحلم وأنا مستيقظ؟ أم أنه بداية الجنون؟ كلام كثير اختصره عصام بهزّ رأسه يمنة ويسارًا بابتسامة ساخرة.

مرّ اليوم بسلام حتى المساء، اجتمع مع «هاجر» ذكر لها ما حدث وابتسم وازدادت ابتسامته لتذكره أنه لم يبدل ملابس العمل، فتمتم «يا له من يوم شاق وعجيب».

أجابته «هاجر» بقلق:

-ألا تكون مثل المخطوطات وبدت ل«آلان» كشيء مشتعل؟

تفاجئ بكلماتها، لام نفسه على عدم التفكير في ذلك، تحسس سترته، شعر بشيءٍ كروي بها، انتفض جالسًا، أخرجها بسرعة وجدها القلادة نفسها، حروفها تضيئ باللون الأخضر، هذه المرة الضوء يؤلم عينيه أكثر وأكثر، لا يستطيع إغلاق القلادة ولا إبعاد الضوء عن عينيه، تزداد توهجًا، وتنفتح لنصفين، عيناه تسيل دمًا، لحم وجهه يتناثر ويسحب داخل القلادة، تشبثت به «هاجر» بقوة بلا فائدة، أنه يختفى من بين يديها، حاول الصراخ، وابتلع الضوء صوته، دوى في المكان صوت رعد دون سحاب، وضوء برق أخضر، وانفجار ضخم بدون نار كالومضة.

-١٨-

مجرد بداية

استيقظ «عصام» مع شعاع الشمس الأول، فتح عينيه بصعوبة، حاول تذكر ما حدث، متيقنًا أنه ليس مجرد حلم، نظر حوله بوهن رأى «هاجر» ملقاة على الأرض بالقرب منه على سطح المنزل، تحامل على نفسه وانتفض واقفا، اقترب منها ليوقظها، فتحت عينيها بألم، وانهارت باكية، مسح بيده على وجهها وحمد الله على سلامتها، جلسا حتى ارتفعت الشمس، يحاولان تفسير ما حدث بالأمس، لا يملكان الإجابة ولا القدرة على استيعابه، سمعا طرقات على الباب، تبعها صوت «شيماء» تحدث والدتهما وهي تسألها عما يقلقها، أسرعا للطابق الأرضي قابلاها بقلق، تركتهم والدتهما معها وذهبت تحضر لها ماء، فسألها «عصام»:

-ماذا حدث؟ وما هذا الهلع على وجهك؟

أجابته بقلق:

-حدث شيء غريب بالأمس، غزا غرفتي ضوء أخضر كاد أن يخطف بصري، لم أشعر بما حولي حتى سمعت آذان الفجر، لم أدري ماذا أفعل! وحينما فتحت هاتفي وجدت أخبارا غريبة.

عرضت بعض الأخبار على هاتفها فنظرت «هاجر» بدهشة وقالت:

-القلادة.

أجابها بفضول:

-أكانت بالفعل مفتاح العودة؟!

سألتهما شيماء عما يقصدان، فأخبرها، قالت «هاجر» وعلامات الصدمة على وجهها:

-إن اختفت جميع الآثار الموجودة بالخارج، ما الذي يعنيه هذا؟

قالت «شيماء» تؤكد كلام «هاجر»:

-جميع الآثار اختفت بلا أي دليل، وهناك شيء آخر أنظرا!

وعرضت لهما بعض الأخبار، دقق في صفحة الأخبار وفغر فاهه من الخبر: «بعد اختفائها في الدول الخارجية الآثار تعود لوطنها من جديد، تبعها ظهور مدينة بمعابد وقصور أثرية على ساحل البحر المتوسط في الإسكندرية، ويرجح علماء المصريات أنها «كانوبوس».

همس «عصام» بذهول:

-ظهرت «كانوبوس»!

قالتا بهمس كأنهما صوت واحد:

-هل كانت مهمتنا لإرجاعها؟

رفع «عصام» سبابته أمام فمه ليصمتا، ذهب لغرفته، أخرج جهازه اللوحي وألقى نظرة على غرف البيت التي تحوي المخطوطات، الدواليب في الغرف خاوية، شعر بالقلق، همست «هاجر» بذهول:

-أنظرا هناك أيقونة ملف على واجهة الجهاز لم تكن من قبل.

ضغط عليها لفتحها، كأن الشاشة أصابها الجنون ألوانها تتبدل بسرعة كبيرة، لتشكل دائرة بألوان متداخلة، أصابتهم بالدوار، توقفت أخيرًا لتظهر الشاشة كغطاء الصندوق الذي حمى العلوم طوال القرون الماضية، عليه رسالة بالهيروغليفية:

«أنتم قادة العودة وما حدث مجرد بداية»

قالت شيماء بقلق:

-أخشى أن نكون أخطأنا التصرف، أخشى أن نكون الطرف الخاطئ.

ظهر أمامهم «تحوت» شعروا بقشعريرة تسري في قلوبهم، تمالكوا أنفسهم وأحنوا رؤوسهم، أشار لهم ليرفعوا رؤوسهم ودوى صوته في عقولهم:

-لم يكن لغيركم أن ينال شرف المهمة العظيمة، أنتم القادة استحققتم النصر.

مسح على الجهاز اللوحي بيده، لتظهر أيقونة على الشاشة وهمس قبل أن يختفي:

-يمكنكم إعادة العلوم الآن، يمكنكم استعادة هيبة المملكة.

نظروا لغطاء الصندوق وعليه الرسالة الهيروغليفية ورددوا في صوت واحد:

«إنها مجرد بداية»

رغم الألم والضيق

تمت بفضل الله

٧ذي الحجة١٤٤١هـ

٢٨يوليو ٢٠٢٠م

أحمد السيد أبو مكي

الفهرس

العاصفة ٩
البردية الأولى ١٨
عبق التاريخ ٢٨
إعدام الحضارة ٣٦
نهاية الحضارة ٤٣
صوت أوزوريس ٦٧
طيف إيزيس ٧٣
فقد المخطوطات ٨٠
خارطة البداية ٩١
الصندوق المقدس ٩٨
وساوس الشك ١١٢
على أطراف المدينة ١١٨
صورة السماء ١٢٤
ترنيمة العودة ١٣٠
عين حورس ١٣٤
نهاية «ست» ١٤٠
السرداب ١٤٦
مجرد بداية ١٥٦

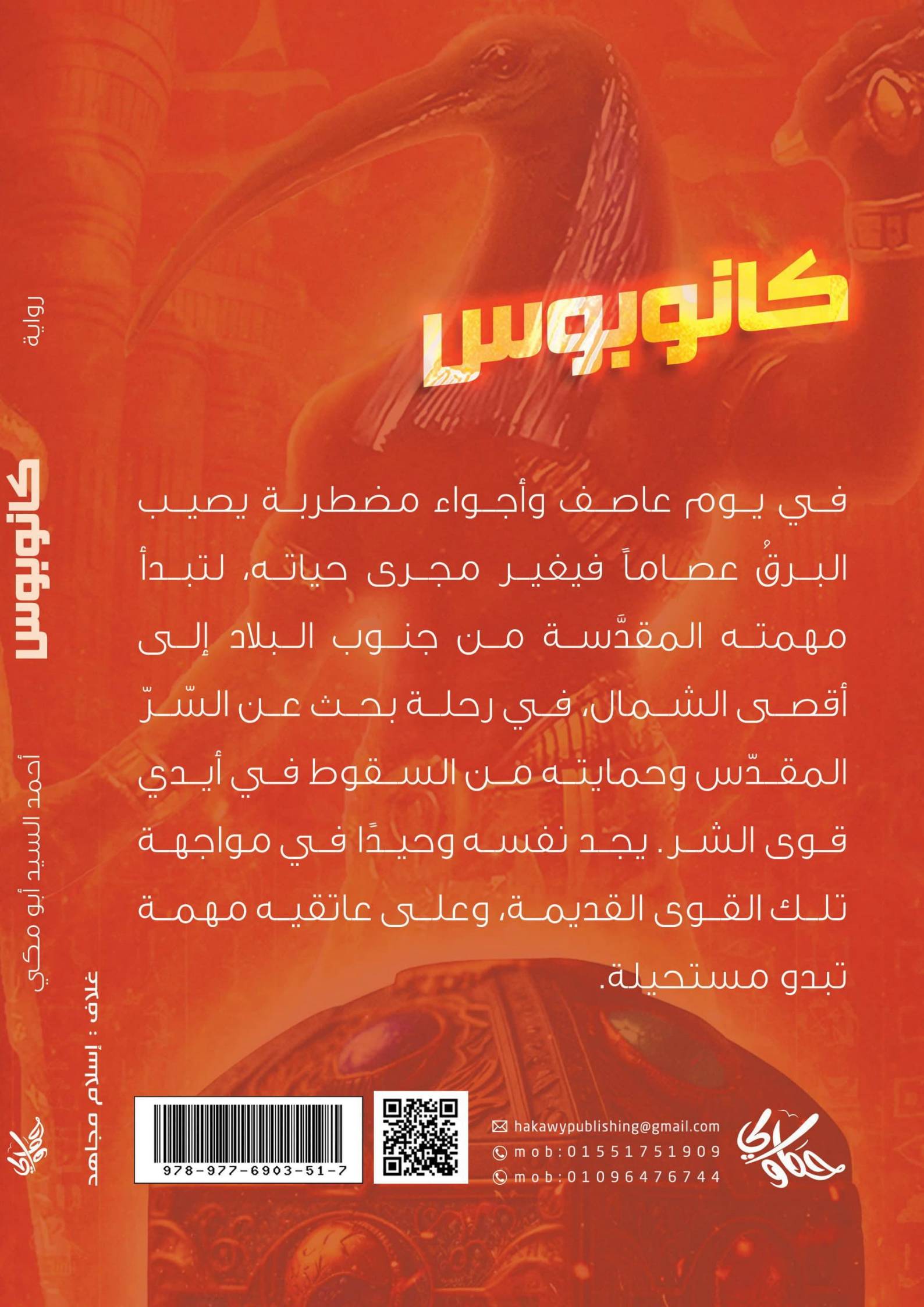

كانوبوس

في يوم عاصف وأجواء مضطربة يصيب البرقُ عصاماً فيغير مجرى حياته، لتبدأ مهمته المقدَّسة من جنوب البلاد إلى أقصى الشمال، في رحلة بحث عن السّرّ المقدّس وحمايته من السقوط في أيدي قوى الشر. يجد نفسه وحيدًا في مواجهة تلك القوى القديمة، وعلى عاتقيه مهمة تبدو مستحيلة.

978-977-6903-51-7

hakawypublishing@gmail.com
mob:01551751909
mob:01096476744

رواية

كانوبوس

أحمد السيد أبو مكي

غلاف : إسلام مجاهد